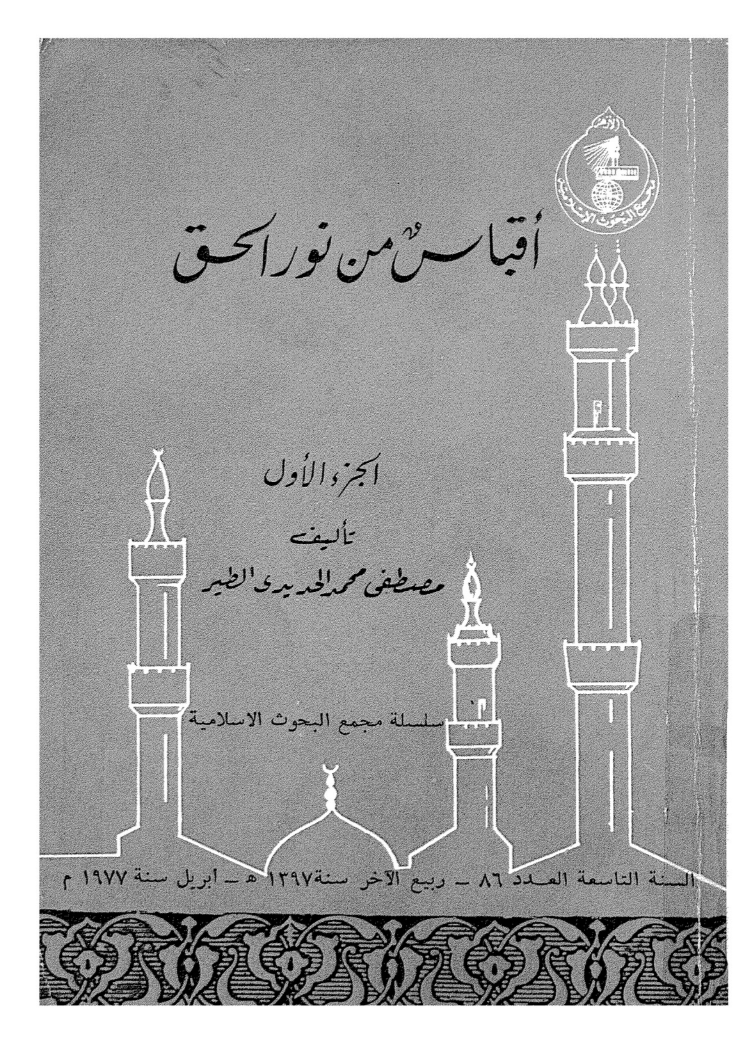


أقباس من نور الحق

الجزء الأول

تأليف

مصطفى محمد الحديدي الطير

سلسلة مجمع البحوث الاسلامية

السنة التاسعة العدد ٨٦ ـ ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هـ ـ ابريل سنة ١٩٧٧ م

إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم الدكتور/ علي حسين كرار

القاهرة



الأمانة العـامة
ارة نشر الثقافة الاسلامية

أقباس من نور الحق

شعار الكتاب

«فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام
ومن يرد ان يضـله يجعل صدره ضيقا حرجا
كانما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس
على الذين لا يؤمنون» .
[١٢٥ سورة الأنعام] .

الجزء الأول

تأليف
مصطفى محمد الحديدي الطير

سلسلة مجمع البحوث الاسـلامية

السنة التاسعة العدد ٨٦ - ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هـ - أبريل سنة ١٩٧٧ م

القـاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

مناجاة

مولاى يارب هذا الكون المزدان بآيات الجمال ، الزاخر ببراهين العظمة والجلال : إن العيون إذا لم تشاهدك فى ذاتك ، فإنها لاتستطيع أن تنكرك فى آلائك .

إنها تُبلِغُ آياتك إلى العقول فتعرفك بآياتك ، وتنقل آلاءك إلى القلوب فتبصرُكَ فى آلائك ، إنك إن غبتَ عن حدقات الأبصار فإنك مشاهدٌ بعيون القلوب .

اشتد خفاءُ ذاتك فأنت الباطن ، وعظم ظهور براهينك فأنت الظاهر ، سبحانك اللهم : سبقتَ فى السُّمُوِّ فلا شىء أسمى منك ، وسبقت فى الدُنوِّ فلا شىء أقرب منك ، فلا استعلاؤك باعدك عن شىء من خلقك ، ولاقُربُك مِنْ خَلْقكَ جَرَّأهم على اقتحام جلالك .

تنزهت عن المكان والزمان ، وعن الكيف والكم ، لايعلم قدرك غيرك ، ولا يبلغ الواصفون صفتك « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ »[1] .

أنت يامولاى لم تُطلِع العقولَ على مدى صفاتك الحسنى ؛ ولكنك لم تحجبها عن واجب معرفتك بآياتك العظمى ،

(١) سورة الزمر : ٦٧

فأعلام الوجود شاهدة بجلالك : فكيف استطاع الجاحدون أن يجحدوك ، وظلوا فى أودية الضلال يهيمون ، أنت يا مولاى واحدٌ فى عظمتك ، مَجيدٌ فى قدرتك ، لا أوَّل لأزَليتك ، ولا آخر لأبَدِيتِكَ ، ولا شريك لك فى ألوهيتك .

أنت الحَكيم فيما ذَرَأْتَ[1] من أرضكَ وسمائك ، الصمَدُ فلا شىء إلا وهو محتاج إلى تدبيرك ،ومعونتك أوجدت الإنسان بلطيف صَنعَتك ، وشرفته بأحسن تقويم ، وسخَّرت لإرادته ما فى البر والبحر ، وقدرت له أجله ، وأوضحت له سبيله ، وجمعت له محامد العقل والفطرة ، وأقمت له الحجج والآيات : « فَمَن اهْتَدَى فَإِنَّما يَهْتَدى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرَى »[2] .

إنك يامولاى متعال عن الشبيه والنظير ، فكيف شبهك المشبهون ، وجَسَّدَكَ المجسدون ، تعاليت يا ألله عما يزعمه الجاحدون والمشبهون ،وتنزهتَ عما يفتريه المبطلون الواهمون إنك فاطر الأرض والسموات ، وداحى المدحوات ، ورافع المسمُوكات ، فكيف أنكرك المنكرون ، أليست لهم أعين يبصرون بها ، وعقول يتدبرون بها ، وكيف شبهك المشبهون أليست لهم قلوب يفقهون بها ، وبصائر يُدْركون بها .

(١) أى خلقت (٢) سورة الإسراء : ١٥

ما أحقر الشبيه والنظير ، بجانب هذا الخالق الكبير ، كيف يُشبِهُ الحادثُ القديمَ ، أم كيف يشبه الضعيفُ المحتاج صاحبَ الجبروت وواهبَ القوى ، أم كيف يشبه من خُلِقَ ليموت ، ذلك الإله الحى الذى لا يموت ، تعاليت يا الله عما يقوله الغافلون علوا كبيرًا ، « إِنَّهَا لَا تَعمى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ » .

مولاى يا خالق الأكوان ...

لقد زحفت المادية على العالم الإسلامى ، كما زحفت على كل بقاع الأرض ، ومن عجب أن يروج لها فى بلاد المسلمين ، بعض المخلوعين ممن كانوا مسلمين ، ويقع فى شباكها بعض الغافلين المأجورين ، مع أنك بَعَثْتَ إلى الناس رسولًا هاديا ، حمَّلته الأمانة ، فنهض بها دَاعياً لِوَحيك ، غير واهن العزم فى تبليغ أمرك ، نَشْهَد أنه بَلَّغَ الرسالة أحسن ما يكون التبليغ ، وأدَّى الأمانة أحسن ما يكون الأداء ، وأسمع آذاناً صُمًّا ، وفتح عيوناً عُمْياً ، وشقَّ قلوباً غلفا ، بذلك الفرقان الذى أضاء لهم حَلَكَ القلوب ، وظلام السبيل ، لقد هديت به القلوب بعد خَوْضَاتِ الفتن ، حيث أقام المشاعل على الطريق ، وبين الآيات وأوضح الأحكام ، فليس لأحد بعده حجة عليك

يارب العالمين ، فاللهم افسح له في ظلك وجميل فضلك ، وموفور خيرك ، وأكرم لديك منزلته ، وأتمم له نوره ، واجمع بيننا وبينه في ظلال جنتك ، وموفور نعمتك ، وأعد إلى رحابه من خُدع عن دينه ، اللهم إني هدفت بكتابي هذا أن أهدي القلوب إليك ، وأدلها عليك ، وأكشف للمخدوعين زيف المادية ، وخطر الإلحاد ، وافتح للناس على الحق أبواباً ، وأضيء لهم في ظلام الشبهات أنوارا ، لعلي بذلك أكون قد أديت بعض الحق لدينك ، وساهمتُ في نشر ألوية الحق الذي جاء به رسولك ، وهدفي من ذلك تثبيت قلوب المؤمنين ، وهداية المسترشدين ، وتنبيه الغافلين ، وطمأنينة الحيارى التائهين .

ولقد عزمت على أن أجعله أجزاء ، أُضَمِّنُ كل جزء منها ما يرد على الخاطر من سؤال يحتاج إلى جواب ، ومشكلة تحتاج إلى حل ، وموضوع خلاف يحتاج إلى حسم ، وغير ذلك مما يرتوي به الظمآن ، ويهتدي به الحيران ، ويستقر به المتردد ، ويؤمن به الجاحد « وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

المؤلف :

مصطفى محمد الحديدي الطير

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله الأكرمين ، وأصحابه الذين آووه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئكم المفلحون. . . . . وبعد

فهذا كتاب (أقباس من نور الحق) ألفته ليجد فيه الأخ المسلم جواباً عن كل سؤال ، يعتلج فى صدره عن شئون الدين ، وليجد فيه الباحث عن الحق ما يبتغيه ، وهو يعتبر متمما للفوائد التى طرقها كتابنا (نافذة على الإيمان) الذى سبق طبعه ونشره عن طريق مجمع البحوث الإسلامية ، وسوف يكون فى عدة أجزاء بمشيئة الله تعالى ، وهذا هو الجزء الأول منها ، ويشتمل على ما يلى :

١ ـ المادية تزحف على العالم الإسلامى .

٢ ـ عقائد الناس فى الخالق .

٣ ـ تفسير سورة الإخلاص .

٤ ـ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ دعائم الأمة الرشيدة في الإسلام كما يُصَوِّرها قوله تعالى في سورة النَّحْل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . » الآية (٩٠) .

٦ ـ الدعاء والقدر .

٧ ـ الذكر بغير الأسماء الحسنى لا يجوز .

٨ ـ تعدد الزوجات والطلاق في الإسلام .

٩ ـ الزواج طمأنينة ومودة ورحمة .

١٠ ـ حقوق الأولاد وآدابهم .

١١ ـ حكمة الله في الأمراض البشرية .

١٢ ـ العلاج مشروع في الإسلام .

١٣ ـ الطب النبوى .

١٤ ـ العدوى والتشاؤم والتفاؤل ، بين الطب والشريعة والعادة .

١٥ ـ التلقيح الصناعى فى الأرحام والأنابيب .

١٦ ـ سكنى الكواكب فى نظر العقل والدين .

١٧ ـ الأولياء والكرامة .

وكل باب من هذه الأبواب تحته فروع شتى ، ومسائل مهمة [١] لا يستغنى عنها باحث ولا طالب ولا عالم ، وإنى أحيل القارىء الكريم على الفهرس فى آخر الكتاب ليتبين ما فيه من الموضوعات المهمة ، وليعرف أين يوجد مطلبه من صفحاته ، والله تعالى ولى التوفيق ...

المادية تزحف على العالم الإسلامى

تجتاح العالم – فى عصرنا هذا – موجة عارمة من النزعة الإلحادية المادية ، وقد تسرب منها إلى بلاد المسلمين ما نعيذهم من شره ،

ولقد أصبح لزاما على علماء المسلمين، أن يكونوا أكثر يقظة ، وأقوى حجة ، وأمضى سلاحا ، وأوسع نشاطا ، منهم فى أى عصر مضى ، فهم مسئولون عن حماية المسلمين من شبهات أولئك الماديين وزيفهم الباطل ، بما أتاهم الله من علم ، وبما عهد إليهم من تبليغ الرسالة الإسلامية ، فهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحفاظ الأمانة التبليغية من بعده .

---

(١) بلغت فروعه ومسائله أكثر من ١٤٠ مسألة

وإننى أشهدك يامولاى ، على أننى وقفت نفسى مع تقدم سنى على الرد على هؤلاء المرجفين ، وغيرهم من الملحدين والمنحرفين ، وتبيين الحق لطلابه ، وتثبيت اليقين فى قلوب المؤمنين ، ولن آلو جهدا فى إزهاق شبهات أهل الباطل ،وتثبيت قواعد الحق ، مادام فى عرق ينبض ، والله المستعان ، وهو حسبى عليه توكلت وإليه أنيب ،

ولئن لم يتيقظ المسلمون حكومات وعلماء ، ومثقفين وعامة ، للأخذ على أيدى هؤلاء المخربين ، قبل أن يتغلغلوا فى صميمنا فإنهم سوف يحطمون قيمنا الروحية ، ويفسدون شبابنا بالمغريات المادية ، إنهم يعملون بدون ملل ، ويستخدمون كل سلاح ، ويصرفون بسخاء ، ويأخذون أجورهم بغير حساب ، فليحذر المسلمون ما يراد بدينهم ، ، وليحرصوا عليه حرصهم على أرواحهم ، وليكونوا أيقاظا نحو أولادهم طلاب المدارس والجامعات ، ونحو عمالهم فى المصانع والمعامل ، فهم صيدهم الثمين ، بما يزينون لهم من أباطيل .

لقد زلزل أولئك الماديون عقائد الكثيرين من أهل الكتاب فى أنحاء العالم ، وأغراهم هذا النجاح بالمزيد من الهدم ، فإنهم لا يريدون سلطان الدين على القلوب ، بل يريدون

اقتلاع الإيمان من النفوس ، وإحلال المذهب المادى محل الأديان جميعا ، لأنها هى التى تقف فى سبيلهم ، وتصرف الناس عن أباطيلهم ، فليجتمع أهل الأديان جميعا على كفاحهم ، فهم سُوسُ الأديان ، والسُّمُّ الزُّعافُ الذى لا تختلف الأديان فى وجوب درئه واتقائه ؛ لقد استَحَبَّ الماديون العمى على الهدى فأعرضوا عن آيات الله .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

إن هؤلاء لم يكلفوا أنفسهم كشف الغطاء عن أعينهم ، ورفع الختام عن قلوبهم ، فجعلوا الحياة الدنيا مبْدَأَهُمْ وغايتهم ، وجعلوا متاعها أملَهم ومطْلبهم ، فتحللوا من القيم الخلقية والدينية ، ونشط دعاتهم فى كل مكان ، فماذا أعددتم أيها العلماء لرد هم وماذا أعددتم أيها الحكام لردعهم ، وماذا أعددتم أيها المؤمنون لحماية أنفسكم من مكرهم ؟.

إن الأمر يتطلب من العلماء مزيدا من الثقافة الدينية والعصرية ، ويتطلب من الحكام مزيد بطش وحماية ، ويتطلب من الشباب مزيدا من الثقافة الدينية .

المـاديون ينكرون الخالق

إن أول شيء ينكره هولاء الخبثاء، هو الإله الخالق جل وعلا، مع أن الإيمان به بديهة من بداءة العقول، فلو خلى المرء ونفسه، دون أن يتأثر بالمؤثرات الصارفة عن الحق، لما وسعه إلا المسارعة إلى الإيمان به، يستوى فى ذلك الأعرابى فى البادية، والمثقف الواعى الذى لم يحرفه تيار الإلحاد. !

فهذا العربى يحدو ناقته فى الصحراء، ثم يتوقف فجأة حين يسمع صوتا من أعماق نفسه، يدعوه إلى التفكير فيما حوله، فيستجيب له ثم يقول :

البعرة تدل على البعير، وأثار السير على المسير، فأرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، كل ذلك يدل على إله واحد، قدير عليم قوى حكيم.

الآن عرفت الله

وهذا العالم المادى الألمانى المتخصص فى علم الأحياء، يبحث فى معمله زهرة نادرة لم يكن رآها من قبل وحوله تلاميذه يشاركونه فى فحصه، فيصيح بعد أن تتبع عجائب الزهرة ويقول : الآن عرفت الله : فيخاف تلاميذه وينفضون من حوله، خشية أن يكون قد مسه جنون، فيناديهم فى اتزان وحنان، تعالوا

يا أبنائى ، لقد كنا فى ضلال مبين ،إن الطبيعة لا عقل لها، حتى تبدع هذا الجمال الفائق ، فى التركيب والتلوين : والتنسيق والخصائص، إن وراء الطبيعة إلـٰهاً صنع هذا الكون فأبدع، وهو الذى أبدع هذه الزهرة العجيبة .

رئيس أكاديمية يرشد إلى الخالق

وهذا العالم الأمريكى الكبير ، الدكتور (كريسى موريسون) رئيس الأكاديمية العلمية بنيويورك (سابقاً) يقول فى كتابه (العلم يدعو إلى الإيمان) : إن أية ذرة أو جزئية فى هذا الكون لم يكن لها فكر قط ، وأى اتحاد للعناصر، لم يتولد عنه رأى أبدا ، وأى قانون طبعى لم يستطع بناء (كاتدرائية) ثم يقول : « فما هو هذا الكائن الحى – أى الموجود الحى – الذى خلق الموت والحياة، إنه شىء غير ملموس أعلى كثيرا من المادة، لدرجة أنه يسيطر على كل شىء، وهو مختلف جدا عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، ومن أجل ذلك لا يمكن رؤيته ولا وزنه وقياسه » إلخ .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ويقول : « ليس كمثله شىء وهو

السميع البصير » ويقول الإمام على فى هذا المعنى أيضاً :
لاتدركه العيون بمشاهدة ،ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملامس ، بعيد منها غير مباين ، متكلم لا بروية ، مريد لا بهمّة[1] صانع لا بجارحة ، لطيف لايوصف بالخفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقة ، تعنو الوجوه لعظمته ، وتجب[2] القلوب من مخافته.

نصوص حول الذين

هذا عنوان كتاب مادى ، ألفه مع الأسف ، كاتب اسمه (محمد الكبة) وراجعه آخر اسمه (العفيف الأخضر) وقامت بنشره (دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت) وقد أحال مجمع البحوث الإسلامية هذا الكتاب علىّ لفحصه وتقديم تقرير عنه ، فوجدته كتابا هدّاماً للأديان ، مجافيا للحق مأجورا للباطل ، فطلبت من المجمع أن يوصى بمصادرته ، لما فيه من خطورة ومجافاة للحق ، وترويج للباطل ، وقد صودر هذا الكتاب فعلا ، بناء على ما طلبه مجمع البحوث .

---

(١) أى أنه تعالى لا يحتاج فى كلامه إلى تفكير طويل كما يفعل المحدثون وإذا أراد شيئا فانه لا يجمع الهمة لتنفيذه ، فإنه يقول الشىء كن فيكون .

(٢) أى تخفق وتضطرب

إن صاحب هذا الكتاب يرى إحلال الاقتصاد ، محل الخالق جل وعلا ، فهو يقول فى ص٧ : «إن تتويج الاقتصاد على الأرض كان يتطلب فى البدء كشرط أساسى ، نزع تاج إله السماء الذى يُغَطِّى ظهر الأرض بظله ، تقلَّدَ هذه المهمة فرسانٌ عرُّوا حقيقة الوهم الدينى » .

ويقول فى ص١٥ : (إن السعادة لم تعلو عدا أسطوريا كما كانت فى الدين ، بل أصبحت التزاما اقتصاديا ، أيها العامل كلما ازداد إنتاجك ، ازداد استهلاكك ، وازدادت بذلك سعادتك ، هذا مايميز الاستهلاك المَشْهَدِىّ وريث الدين ، إعطاء الثواب فى العاجلة ، لافى الآجلة ، الجنة لم تعد فى السماء بل فى المخازن ،وويل لأصحاب الجيوب الفارغة) إلى آخر ماقاله هذا الملحد الأثيم ، ونسى قوله تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » وقوله : «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » إلى غير ذلكَ من النصوص القرآنية والنبوية ، التى تحض الناس على الأخذ من الدنيا بنصيب ، لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يحض الناس على العمل للدنيا ، إلى جانب حضه لهم على العمل للآخرة ، وكان يفهمهم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ومما كان الرسول يقوله :

اعمل عمل امرىء يظن أن لن يموت أبدا ، واحذر حذر امرىء يخشى أن يموت غدا .

ولكن مرض القلوب صرفها عن الحق ، وعمى العيون جعلهم لا يقولون الصدق ، والمال الذى يغدق عليهم حتى يكفروا وَيُكَفِّرُوا سواهم ، أفسد نفوسهم ، فأرادوا إفساد غيرهم .

إنا نسأل أولئك الأغبياء الذين يحرضون الناس على الاعتراف بالدنيا والكفر بالآخرة ، وعلى الكفر بالله والإيمان بالمال ، هل نجحوا فى دنياهم أكثر مما نجح المتدينون ؟ وهل سعد العامل عندهم أكثر مما سعد عند سواهم ؟.

كلا ، فالعامل عندهم يحصل على أجر دون سواه فى الدول المتدينة ، ونسبة الغنى عندهم هابطة جدا عن نسبته عند سواهم ، ولذا نراهم فى هذه الأيام يتعاملون مع الدول المتدينة ، ويطلبون منهم الأغذية والمعونات المالية ، فالحق أنهم خسروا الدنيا والآخرة « ذلك هو الخسران المبين »

يقول هذا المسكين فى ص ١٥ أيضا : « أعطى الأنبياء شيكا بدون رصيد لتزييف مطلب الإنسان فى عيش السعادة » يريد بذلك أن وعدهم الناس بنعيم الآخرة – إن آمنوا وأصلحوا – يعتبر

شيكا بدون رصيد ، لأنه لا آخرة فى نظره ، حتى يحصلوا منها على ماوعدوا ، وأنهم حرموا الناس من السعادة الدنيوية ، بحضهم على الزهد فيها .

وهذا الفحش الذى قاله ، لا ينطق به سوى مخبول ، فهل يعقل أحد أن هذا الكون العظيم ، وجد ليعيش الإنسان فترة من الزمن على هواه ، ثم يموت ويصبح جيفة يأكلها الدود ، ويستوى بذلك المحسن والمسىء ، والظالم والعادل ؟ لو كان الأمر كما زعم ، لكان هذا الكون ضلالا وضياعا ، ولكان عبثا ونكرا ،لا يأيها المخبول ، إن لك حياة أخرى تنتظرك تحاسب فيها على جرائمك وخبالك وأن هذا الكون لم يخلق عبثا كما توهمت وتوهم أهل الخبال أمثالك « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

إن كل ما وعد به الأنبياء سيكون ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، إن الأديان لم تحرمك السعادة فى دنياك ، كما سبق بيانه ، بل ضمنت للناس سعادتهم فى دنياهم وأخراهم ...

إن الجنس البشرى لولا شرائع الله فى عصور النبوات ، لعاش فى جهالة تامة ، يضرب فى صحارى الحيرة ، ويتخبط فى دياجير المظالم ، ويتمرغ فى أوحال الأخلاق الوضيعة ، ويؤله الأحجار والأنصاب .

إن ماديتهم التى يعيشون فيها أهدرت جميع القيم الخلقية ، فهم يبيحون الأعراض وجميع المآثم ، فاقرأ ما قاله هذا الآثم فى ص ٥٦ (إن حركة بابك الحزمى ٢٠١ — ٢٢٣ كانت الثورة الشيوعية الأم) وذكر من مزاياها إباحة النساء على الرضا منهن ، وإباحة كل لذة مالم يعد ذلك بالضرر على أحد ، ومع هذه المآثم والفضائح يمتدحها ، ويجعلها أما للثورة الشيوعية ، فتبًا لهذه الأم ، وتبا لذريتها التى تنكر الأديان ، وتبيح الأعراض .

ولم يقتصر المؤلف على ماذكر فى الهجوم على الأديان ، بل استفاض فى أكاذيبه حتى قال : إن الدين قضى على التعايش السلمى بين الإنسان والعلم .

ونحن نسأل هذا المؤلف الغبى : هل كان العلم موجودا قبل الدين ، فلما جاء الدين قضى عليه ، فإن زعم ذلك قلنا له إنك جاهل بالتاريخ ، فعليك أن تتعلم ، فإن الرسل إنما بعثوا للقضاء على جهالات الأمم والشعوب ، ونشر العلم والعرفان بينهم .

ألم يبلغه ما كان عليه العرب قبل البعثة المحمدية ، من الجهل والأمية ، والشتات والتفرق ، وإغارة بعضهم على بعض ، فلما

جاءهم الإسلام ، نقلهم من الجهالة إلى العلم فى شتى فروعه ، وجعلهم أمة واحدة بعد تفرق ، وجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، بعد أن كانوا متحاربين متدابرين .

ألم يقرأ شيئا عن دمشق الأموية ، وبغداد العباسية ، ومصر الفاطمية والأندلس الأموية ، وما أضفته مدنياتها وحضارتها وعلمها على العالم ، من العلم والعرفان والحضارة ، بعد أن كان يلفه الجهل والنوم العميق ، ألم يقرأ عن شارلمان ملك فرنسا أنه لما أهداه الرشيد ساعة دقاقة متحركة بالماء ، انزعج منها وظن أنها مسكونة بالشياطين ،

ألم يبلغه أن الدولة الإسلامية نقلت إلى العالم طبها وموسيقاها وكيمياءها ، وعلوم الفلك والرياضة وفن السياسة والحكمة ، وغيرها إلى جانب علوم الدين فكيف يزعم هذا الغبى أن الدين قضى على التعايش السلمى بين الإنسان والعلم ؟ وصدق الله إذ يقول : « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

إن الذى ينكر الإله ، لا يستبعد منه أن ينكر ضوء الشمس فى يوم صاف جميل ، ولا يستغرب منه أن ينكر العطر الذى يتضوع شذاه من الأزهار ، فمنشأ إنكار المحسات مرض الحواس ، ومنشأ إنكار

المعقولات مرض العقول ، وهؤلاء مرضى الحواس ومرضى العقول .

إن الجدل مع هؤلاء الماديين لا يفيد ، لأنهم ليس لديهم شيء من الأصول الثابتة يمكن ردهم إليه ، وإن هؤلاء شر من المشركين عباد الأصنام ، فإنهم كانوا يعتقدون أن الله الذى خلق السموات والأرض ، قال تعالى : «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» وكانوا يعتقدون أنهم يتقربون بعبادتها إلى الله ، فهؤلاء كان يمكن ردهم إلى هذا الأصل الذى يقرون به ، والتفاهم معهم على أساسه ، وردهم إلى الحق عن طريقه ، أما هؤلاء فهم معاندون مصرون على إنكار الخالق ، والهجوم على الأديان ، والمادة هى كل شىء عندهم ، فلا فائدة من الحديث معهم ونقاشهم فى مزاعمهم .

وكل ما يهمنا هو حماية ناشئتنا من شرورهم ، وهذا هو الذى نحرص عليه ، ونبذل الجهد فى سبيله ، والله المستعان .

عقائد الناس فى الخالق

كان الناس قبل مبعث نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحاب عقائد متباينة ، لا تمت إلى الحق بصلة فأهل مكة وسائر العرب كانوا يعبدون آلهة من الأحجار والأنصاب ، ولم يكونوا فى عبادتها على مذهب واحد ، فلكل طائفة معبود أو أكثر ، والذا تنوعت بينهم الآلهة ، وتعددت ، وبلغت مئات ، وأحيانا كانوا يجمعون على عبادة بعض آلهتهم :

فخزاعة وقريش أول من عبد الصنمين (إسافاً ونائلة) ثم عبدهما العرب من بعدهم ، وهذيل عبدت (سواعا) وكليب عبدت (وَدًّا) ومذجح عبدت (يغوث) وحُمَيرٌ عبدت (نسرا).

ومن أقدم أصنام العرب (مناة) وكان صنمها على ساحل البحر الأحمر بناحية المشلل بقديد ـ بين مكة والمدينة ـ وكانت العرب جميعا تعظمها ، وتذبح القرابين لها ، وكانت الأوس أشد العرب وأكثرها تعظيما لها ، فإذا نفروا من منى أتوها ، فحلقوا رءوسهم وأقاموا عندها ، لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك ، وفيها يقول بعض من يعظمها :

إنى حلفت يمين صدق برّة ... بمناة عند محل آل الخزرج

وطيء كانت تعبد (الفَلْس) وثقيف كانت تعبد (اللات) وهي صخرة مربعة بالطائف ، وعبدها العرب معها ، ثم عبدوا العزى بعدها ، وكانت العزى أعظم معبود لقريش ، وكانوا يكذبون على الله ، فيزعمون أن اللات والعزى بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

ولما مرض سعيد بن العاص مرضه الذى مات فيه ، دخل عليه أبو لهب يعوده ، فوجده يبكى ، فقال : ما يبكيك يا أبا أُحَيْحَة ، أمن الموت نبكى ولا بد منه ؟ قال لا ، ولكن أخاف أن لا تعبد العزى بعدى .

وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عابها — قال أبو لهب — والله ما عُبِدَتْ حياتَك لأجلك ، ولا تُتْرَكُ عبادتها بعدك لموتك ، فقال أبو أُحَيْحَة : الآن علمت أن لى خليفة ، وأعجبه شدة نَصَبه فى عبادتها .

وكانت العزى ثلاث سمرات (نوع من الشجر) ببطن نخلة ،

وكانت الشياطين تتحدث من ورائها ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، خالد بن الوليد فقطعها بعد فتح مكة ، وكان يقول عندما قطعها :

يا عُزّ كُفْرانَك لا سبحانك   إنى رأيت الله قد أهانك

ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما إنها لن تعبد بعد اليوم .

ولما دخل الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسجد الحرام بعد الفتح ، وجد حول الكعبة ثلثمائة وستين صنما ، فجعل يطعنها بسيَةِ القوس [1] فى عيونها ووجوهها ويقول :

« جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

ثم أمر بها فأُخرجت من المسجد وكسرت وأصبح خالصا لعبادة الله تعالى .

وكما كانت لهم أصنام حول الكعبة كانت لهم أصنام فى جوفها ، أعظمها هُبل ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، فأدْرَكَتْه قريش كذلك ، فجعلت له يدًا من ذهب .

وكانوا يستقسمون عنده بالأزلام ، إذ جعلوا قدامه سبعة أزلام (أى سهام) كتبوا على أحدها (صريح) وعلى آخر (ملصق) وعلى الباقى ما يوافق أغراضهم ، مثل أمرنى ربى أو نهانى ربى .

---

(١) سِيَة القوس طرفه .

فإذا شكُّوا فى مولود أهدوا لهبل هديا ، ثم ضربوا بالأزلام ، فإن خرج (صريح) ألحقوا الولد بهم ، وإن خرج (ملصق) ردّوا المولود ولم ينسبوه إليهم .

وإذا اختصموا فى أمر ، أو أرادوا سفرا أو نكاحاً أو عملا ، أتوه فأداروا تلك السهام ، ثم تناولوا أحدها ، فعملوا بما كتب عليه ، وهذا هو الاستقسام بالأزلام الذى حرمه الله ، لأن فيه احتكاماً إلى ما لا يفيد ظنا ولا علما ، ولأنه تترتب عليه آثار خطيرة تتصل بالأعراض والأنساب والنكاح والأموال بطريقة ظالمة لامجال للحق فيها ؛ فإنهم يستندون فيها إلى حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى من الحق شيئا ؛ متوهمين أنه هو الذى يقسم ويحكم لهم ؛ ويخرج لهم السهام الدالة على حكمه ؛ وما هم فى وهمهم إلا كاذبون .

وكان لأهل كل دار بمكة صنم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم سفراً ، كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا ، فلما بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأتاهم بتوحيد الله قالوا : «أَجَعَلَ الآلِهةَ إِلَهًا وَاحدا إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عجابٌ» .

وأى شىء هو العجاب ، أهو اتخاذهم الأحجار أرباباً ، أم هو توحيد الخالق الذى يتقربون إليه بعبادة الأحجار ؟ كما كانوا يقولون «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى» .

ولقد كانوا يتخبطون فى شأن هذه الأصنام ، فبينما هم يقولون ذلك ، ويعتقدون أن الله خالق السموات والأرض « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » إذا هم ينسبون إليها الرزق والمطر ، والشفاء والنصر ، ولهذا لما انتصرت قريش فى غزوة أحد ، هتف أبو سفيان (اعْلُ هُبَل)[1] فقال صلى الله عليه وسلم : « الله أعلى وأجل » .

ولقد بلغ بهم الوهم فى تقديس هذه الأوثان ، إلى درجة أن نساءهم الحيض كانت لا تدنو منها ، بل كانت تقف بعيدة عنها ، ولاشك أنه من فضل الله على هؤلاء الغافلين ، أن بعث فيهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ليحرر عقولهم من سيطرة الأوهام ، ويخرجها من أسر الخرافات ، ويوجهها نحو الرشاد فى العقائد والأخلاق والمقاصد ، ولله در الشاعر راشدِ بن عبد الله السُّلَمى إذ يقول :

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا
يأبى الإله عليك والإسلام[2]

(١) أى ليعل دينك ، وليعظم شأنك فقد نصرنا بعبادتك .

(٢) أى لا أتحدث معك حديثا محرما ، لأن الإله يمنعك منه والإسلام كذلك .

أو مارأيت محمدا وقبيله
بالفتح حين تكسر الأصنام
لرأيت نور الله أضحى ساطعا
والشرك يغشى وجهه الإظلام[1]

موحدون فى الجاهلية

ولقد كان بين أولئك الوثنيين بعض الراشدين الذين تركوا ماعليه قومهم ، واتجهوا نحو توحيد الله تعالى : ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد تالّه فى الجاهلية ، وترك عبادة الأصنام وفى ذلك يقول :

تركت اللات والعزّى جميعا
كذلك يفعل الرجل الخبير
فلا العزى أدين ولا ابنتيها
ولا صنمى بنى غنم أزور
ولا هُبَلاً أزور وكان ربًّا
لنا فى الدهر إذ حُلمى صغير

(١) معظم المعلومات عن الأصنام مصدره كتاب الأصنام للكلبى .

عقائد الهنود قبل الإسلام

وإذا نظرنا إلى الناس فى سائر الأَرض ، وجدنا معظمهم ينسى الله ويعبدون معبودات أخرى من خلقه ، فبعض أهل الهند كانوا يعبدون الشمس ، ويزعمون أنها من الملائكة ، وأن لها نفسا وعقلا ، وأنها مصدر النور فى الكواكب ، وأن الكائنات السفلية صدرت عنها ، وأنها لذلك تستحق التعظيم والسجود ، وأن يوجه إليها الدعاء ويطلق البخور .

وقد اتخذوا لها صنما يرمز إليها ، بيده جوهرة بلون النار وجعلوا لهذا الصنم بيتا خاصا ؛ ووقفوا عليه ضياعا ، وجعلوا له سدنة وقواما ، وكانوا يقيمون الصلاة فيه ثلاث مرات يوميا .

ويأتى هذا البيت أصحاب الحاجات والمرضى ، فيدعونه ويستشفون ببركته المزعومة ويصومون له .

وكما يقدسون الشمس ويصلون لها ، يفعلون مثل ذلك لسائر الكواكب التى تستمد ضوءها منها : فلا يقصرون الربوبية على الشمس ، بل يشركون الكواكب معها فيها .

وكانوا يتخذون للقمر صنما على صورة عجل ، وبيده جوهرة ، وينسبون إليه بعض ماينسبونه إلى الشمس كنضج الثمار .

ومن دينهم أنهم يسجدون له ، ويصومون من أجله نصف الشهر القمرى الثانى ؛ وكانوا لا يفطرون حتى يطلع القمر ، ثم يأتون الصنم بالطعام أو الشراب واللبن ، ويرغبون إليه فى حاجاتهم ، ثم ينظرون إلى القمر الذى رمز إليه بهذا الصنم فيسألونه حوائجهم .

وإذا استهل الشهر القمرى يَعْلُون سطوحهم ، ويوقدون النار ويدعونه عند رؤيته ، ثم ينزلون عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور برؤية هلال معبودهم ، وكانت لهم معبودات أخرى غير الكواكب .

(١) يقول الأستاذ أحمد حسين فى كتابه «الإيمان والإسلام» ص ٨٤ إن كتب الهنود المقدسة تتحدث عن عدد الآلهة لديهم فتصل بها إلى (٣٣٠) ألفا ، وأحيانا إلى (٣٣٣) فقط ثم اتجهوا إلى الإله الواحد الذى لا شريك له فى الملك ، والذى لايشبه شيئاً من مخلوقاته ، أو كما يقول كتابهم المقدس (الفيداس) إنه لايشبه هذا أو ذاك ، هو المطلق ، هو فكرة العالم الكائن فى نفسه ، هو اللانهائى الذى لايتحرك ولا يمكن تعريفه ، لأنه أعلى من كل تصور ، وفوق كل إدراك ، إنه لايتكلم بواسطة الكلمات ، ولايفكر بالتخيلات والتأملات ،

وهو لا يرى بعينين ، ولا يسمع بأذنين ، ولا يتنفس بشهيق ، هو الكائن الذى أبعد عن نفسه كل عناصر الشر ، هو الذى لا يهرم ، وهو الحى الذى لا يموت ، هو الذى لايحس جوعاً أو ظمأ ، ولايشعر بحزن ، هو الذى يضطر الإنسان إلى معرفته ، هو براهما . . . اه .

وأفكار هؤلاء فى أوصاف الإله الواحد كما نرى ، تشبه ماجاء فى الإسلام عنه ، وإن اختلفت التسمية ، فالإسلام يسميه الله ، وهم يسمونه براهما ، كما تختلف فى بعض العبارات .

عقائد قدماء المصريين

كان لقدماء المصريين عديد من الآلهة ، فقد عبدوا القط والجعران وأبا الهول ، وأشهر آلهتهم قبل توحيدها العجل (أبيس)[1] ثم اتجهوا حينا إلى توحيد الإله بطريقة أخرى وجعلوه (الشمس) وكانوا يطلقون عليه (رع) وارتفعت المعابد لتقديسها ، وعبادتها فى طول البلاد وعرضها ، وكانت

---

(١) كان يرمز به إلى إله يدعى «بتاح» يعنون به الرب المنفرد بالخلق والعظمة والذى إذا قضى شيئا لايرد — انظر ص٦٦ كتاب «الإيمان والإسلام» للأستاذ أحمد حسين.

عبادتها، هى عبادة الدولة الرسمية ، حتى أصبح لقب الملك الرسمى (ابن الشمس) أنظر كتاب (الإيمان والإسلام) للأستاذ أحمد حسين ص (٦٧) .

وكان الملك أخناتون يعبدها ويناجيها ، وفيما يلى ترجمة بعض مناجاته لها :

إنك تشرق جميلا فى أفق السماء ، يا أتون الحى ، يا بدء الحياة ، ملأت كل بلد بجمالك وحرارتك ، إنك جميل ، إنك عظيم ، إنك تتلألأ عاليا فوق كل بلد ، إن أشعتك تحيط بالأرض كلها ، وبكل شىء خلقته ، لأنك (رع) تستطيع الوصول إلى نهايتها ، وتستطيع أن تجعل كل بلد أسيرا ، إنك الإله الذى دان الجميع بحبك ، إنك ناء ولكن أشعتك على الأرض .

إلى أن قال : وأنت الذى خلقت الناس لأجل ابنك الذى ولد من صلبك ، ملك مصر العليا والسفلى الذى يحيا فى الحق ، سيد الأرضين (أخناتون) الذى يحيا إلى الأبد .

عقائد غيرهم

ومن الناس من عبد الإناث باعتبارهن أصلا للجنس البشرى ، وأشهرهن إيزيس المعبودة المصرية القديمة ، وقد انتقلت عبادتها من مصر إلى الرومان فقدسوها وجعلوها إلهة الحكمة ، وكما انتقلت عبادتها إلى الرومان ، انتقلت إلى غيرهم .

ومن الناس من عبد الآباء والأجداد وقدسهم ، كاليابان والصين ، ولاتزال الأمة اليابانية إلى وقتنا الحاضر تعبد الآباء والأجداد ، إلى جانب عبادتها الإمبراطور ، الذى يزعمونه ابنا للشمس ، وكانت الصين تعبد آباءها إلى ماقبل الثورة الشيوعية فيها .

ومن الناس من عبد الحيوانات الضارة ، اتقاء لشرها ، كالتمساح والثعبان [1] ، ومنهم من عبد الحيوانات النافعة ، تقديسا لمنفعتها ، كالبقر ، ومنهم من عبد الأنهار ، كما كان أهل مصر يعبدون النيل ، ويتقربون إليه فى وفائه

---

(١) عبدهما قدماء المصريين .

بإلقاء أجمل فتياتهم إليه ، وهي مزدانة بأجمل الحلي والثياب ، لتكون عروساً له .

وكما كان أهل الهند يعبدون نهر الكنج ، ويقولون إن الماء مصدر الحياة وأصلها ، فلذا يستحق التقديس والعبادة .

ومنهم من كان يعبد النار كأهل فارس ، ومنهم من كان يعبد الرعد والبرق إلى غير ذلك من المعبودات .

الديانات السماوية قبل البعثة المحمدية

كان قد بقي من الديانات السماوية قبلها اليهودية والنصرانية ، وأصحاب هاتين الديانتين ، مع اعتقادهم أن الله هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، يعتقدون أن لله ولدا ، فاليهود يقولون : عزير ابن الله ، والنصارى يقولون : المسيح ابن الله ، وكلتاهما مجسمة ، فالإله عندهم قد يحل في البشر ، وينزل إلى الأرض ، ويخاطب الناس ، ويختلف اليهود مع النصارى في التثليث ، فالنصارى يقولون : الله ثالث ثلاثة ، واليهود لا يقولون ذلك

سورة الإخلاص

وبما أن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأن كل شىء محتاج إليه وحده، أنزل الله سورة الإخلاص وغيرها من آيات التوحيد والتنزيه ، تنبيها على فساد عقائد هذه الفئات المتباينة ، وإرشادا إلى مايجب لله تعالى من كريم الصفات وإلى مايجب تنزيهه عنها من أضدادها ، وفيما يلى تفسير سورة الإخلاص لأهميتها فى بيان عقيدة المسلم وامتيازها على عقائد المخالفين له ، بمسايرتها للحق المبين .

تفسير سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) » .

البيان

(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) :

الأحد فى اللغة : بمعنى الواحد . وقد أمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم : أن يبلغ أمته من أهل الدعوة الإسلامية ، أن إلٰههم هو الله الواحد ، فلا شريك معه فى الألوهية والربوبية .

وقد قامت الأدلة العقلية على وحدة الصانع سبحانه ، وقد أشار الله فى سورة الأنبياء إلى واحد من هذه الأدلة العقلية فقال : « لو كَانَ فِيهِمَا آلِهةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ ربِّ الْعرش عَمَّا يصِفُونَ »

ونحن نبسط الكلام على أدلة الواحدنية من ناحيه العقل فنقول :

إن هذا العالم إما أن يكفيه خالق واحد ، ينشئه من العدم ويدبر أمره أحسن تدبير ، أو لا يكفيه .

فإن كان يكفيه خالق واحد ـ وهو الحق ـ فلا داعى لوجود غيره ، لعدم الحاجة إليه ـ إذ وجوده فى هذه الحالة عبث ، والعبث يشين المخلوق ، فكيف لا يشين الخالق جل وعلا ، فهو مرفوض عقلا ، لأن العقل لايقبل إلٰها عاطلا لا عمل له ، ولا جماعة قادرين يمكن الاستغناء بأحدهم فى خلق هذا الكون ، أرأيت لو أن مهندسا واحدا يمكنه أن يصنع منزلا ، أفيليق أن يكون معه مهندسون مثله؟ ، ألا يكون هذا سفها لا يليق بكفايتهم ، ولهذا ترفض الدولة الرشيدة أن يعمل مثل هؤلاء فى عمل يقدر عليه أحدهم، لأنه سفه وسوء تدبير .

ثم يقال: إنهم إما أن يعملوا متعاونين متفقين على مايخلقون ويدبرون ، وإما أن يعملوا مختلفين ، فإن عملوا مختلفين تضاربوا فى إرادتهم ، وعجزوا عن تحقيق مشيئتهم، لأن كلا منهم يمنع الآخر عما يريد تحقيقه ، وفى ذلك فساد العالم، وهذا هو الذى عناه الله بقوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » .

وبما أن أمر العالم مستقيم ، وجب نفى تعددهم وهم مختلفون .

وإن عملوا متعاونين مؤتلفين ، فلماذا يتعاونون ، وكل :

منهم قادر على مايقدر عليه سواه ، إن القول بذلك يقضى إلى وصف كل منهم بأنه عاجز عن تحقيق مراده إلا بمعاونة شركائه ، وهذا يخالف ما فرض من أن كلا منهم كامل القدرة والتدبير ، وإذا كان هذا الفرض يؤدى إلى العجز ، فإن التعدد فى هذه الحالة مستحيل ، كما استحال التعدد وهم مختلفون .

وإنك لاتجد كتابا سماويا جاء نص من نصوصه يدل على التعدد ، فكل من التوراة ، والإنجيل صريحان فى أن الرب واحد ، أما التثليث فلا يوجد نص عليه لا فى التوراة ولا فى الإنجيل على اختلاف نسخهما ، وأما ما زعمه الذين يقولون بالتثليث ، فلا أصل له فى هذين الكتابين مطلقاً ، وإنما هو من صنع البشر ، كما سنبينه عند الكلام على قوله تعالى : « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » وإذا كان التعدد قد فقد الدليل من العقل ومن النقل فلا يمكن القول به ، لأن العقائد لايمكن المصير إليها إلا بالدليل العقلى أولا ، فإذا كان العقل يرفض التعدد ، والأديان بحسب أصلها لا تدعو إليه وجب رفض القول بالتعدد .

فإن فرض أن كل إله منهم يعمل فى ناحية من الكون بمعزل من الآخر ، فذلك أيضا مرفوض ، لأن الكون وحدة

متماسكة، وليس فيه جزء منفصل عن الآخر، حتى يمكن الاستقلال به ، ولأن كلا منهم إذا كان يقدر على مايقدر عليه سواه فلا يصح التعدد ، إذ لا حاجة إليه .

أيها العاقل الفطن — الإله غائب عن العيون، ولا يعرف إلا بالعقول، فإذا كانت العقول لا ترى دليلا عليه فكيف تؤمن به ؟ فضلا عن أن الكتب السماوية لم تقل به أبدا .

وإن زعم أحد أن العالم لايكفيه إله واحد ، وأنه لابد له من آلهة متعددين ، يكمل أحدهم الآخر فيما لايقدر عليه ، ويتعاونون فى ذلك، فالجواب أن ذلك باطل لأمرين (أحدهما) : أن التعاون لايمكن أن يتم إلا بين من يعرفون خصائص كل ما يصنعون تفصيلا ، حتى يخلق كل منهم ما يلتئم مع ما يخلقه الآخر ويكمله ، فمخترع الطائرة مثلا لو لم يكن قادرا على تصميمها كلها، وعالما بخصائص كل جزء منها، فإنه لايستطيع صنعها وتحقيق المراد منها ، لا بنفسه ولابمساعدة من يجهل مايعرفه هو ، كما أن الذين يقومون بتجميع أجزاء الطائرة ، وضم بعضها إلى بعض، لا يستطيعون ذلك، إلا إذا كانوا يعلمون خصائص كل جزء ، وكيفية التقائه بالجزء

الآخر ، حتى يتحقق المراد من صنعها . فإن قيل :إنه يعلم ما يناسبه ، ويقدر على ربطه مما يخلقه الآخر ، ولكنه لايقدر على خلقهما معا ، قلنا هل الجزء الآخر مثل هذا الجزء الذى معه؟ ، أم مخالف له؟ ، فإن كان مثله فكيف يعجز عن خلقه ؟

فالمهندس من بنى الإنسان ، يقدر على صنع مصنعين متماثلين ، ولا يعجز عن صُنعهما ، فكيف بالخالق ، وكيف يفرض العجز عن خلق المماثل فى خالق وهو شين فى المخلوق ، فكيف به فى الخالق ؟.

وإن قلنا إنه مخالف فلا يمكن التسليم به ، لأن الكون متماثل فى كل شىء ، حتى فى ذراته ، فكيف يوصف الخالق بالعجز عن شىء مماثل لما يقدر عليه ، على أن العقول مجمعة على وحدة الخالق وقدرته التامة ، حتى عقول القائلين بالتعدد فى حين أن العجز شين فى المخلوق فكيف به فى الخالق ؟.

إن أصغر مخلوق فى هذا الكون يحير عقول الجبابرة ، فكيف بأعظمها ؟ إن العالم كله يدار بقوانين واحدة ، فلا يستطيع أن يضعها وينفذها سوى إله واحد يعرف كل ماينبغى لخلق كل جزء من أجزائه ، وارتباط أجزاء

المركبات بعضها ببعض ، وارتباط الأجرام السماوية والأرضية بروابط تحفظ كيانها ، وتبقى عليها فى الفضاء ، بحيث لا تتهاوى ، ولا يحطم بعضها بعضا ، كما يعرف ماينبغى لكل مخلوق من المادة والطاقة ، حتى يؤدى وظيفته فى هذا الكون بشكل رتيب ، بحيث لايحدث فيه خلل ، ولايعرض غيره للفساد ، كما يعرف الوقت اللازم لخلقه وتطويره ، ويعرف الأطوار التى ينبغى أن تتعاقب عليه حتى يتم خلقه ، ويؤدى وظيفته إلى غير ذلك مما لا يحصى .

وإنك لترى فى كل جزء صغير من هذا الكون،أعظم الشهادة على ماقلناه ، وحسبك الذرة التى كشف العلم فيها الكثير من العجائب التى تحير الألباب ، فإنها تدلك بعظمتها على عظمة صانعها ، وأنه واحد لا شريك له ، أما التعدد فلا أثر له إلا الفساد والدمار والعجز عن تحقيق المراد . .

وهناك طوائف من الناس وقعوا فى حبائل الشيطان ، فاتخذوا لله شركاء واهنة،كالأوثان والأنصاب ، أو عظيمة ولكنها من مخلوقات القادر العظيم، كالكواكب ، فإنها مقدورة ، وليست بقادرة ، واقع عليها التدبير الإلهى ولست بمدبرة،فلا تصلح للألوهية بحال .

ومن أجل فساد العقول وتقليدها لكل مبتدع ،بعث الله الرسل لإرشادها إليه ، حتى لا تضل عن سواء السبيل .

« اللهُ الصَّمَدُ »[1]

قال ابن الأنبارى : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد : هو السيد الذى ليس فوقه أحد ، الذى يصمد إليه الناس فى حاجاتهم وأمورهم ، وقال الزجاج : هو الذى ينتهى إليه السؤدد ، ويصمد إليه — أى يقصده — كل شىء ، وعن أبى هريرة : هو المستغنى عن كل أحد ، المحتاج إليه كل أحد ، وعن ابن جبير : هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله ، وقال مُرّة الهمدانى : هو الذى لا يبلى ولا يفنى ، يحكم مايريد ، ويفعل ما يشاءُ ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه .

وهذه المعانى كلها مجتمعة فى الله تعالى ، فهو السيد الذى ليس فوقه أحد ، وهو ملجأ القاصدين والمحتاجين ، وهو الذى ينتهى إليه الشرف والسؤدد ، وهو المستغنى عن كل أحد ، الكامل فى جميع صفاته وأفعاله ، الذى لا يبلى ولا يفنى ، يحكم كما يريد ، ويفعل مايشاءُ ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ».

---

(١) أى يقصدونه فيها ، من الصمد وهو القصد .

« لم يلد ولم يولد »

أى ليس لله تعالى ولد ولا والد ، فإن ذلك مستحيل على الله تعالى ، فإن الولد يحتاج إليه أبوه فى أمرين (أحدهما) أن يساعده فيما لا يقدر على الانفراد به ،(وثانيهما)أن يرثه فى ماله ومتاعه بعد موته .

وقد اتفقت الأديان جميعاً — حتى الوثينة — على أن الله تعالى تام القدرة ، تام الإرادة ، تام العلم ، كما اتفقت على أنه تعالى حَىٌّ لا يموت ، فإذا كان أمره سبحانه عند جميع الأديان ذلك ، لزم أنه غير محتاج إلى اتخاذ ولد فى الأمرين جميعاً ، وإلا لكان اتخاذه عبثا ، والعبث على الله محال .

وحيث كان الأمر كذلك ، بطلت دعوى الولدية لله لأى سبب من الأسباب ، وثبت أنه تعالى (لم يلد) .

وبعد ذلك نسأل الذين ادعوا لله ولدا ، لماذا تزعمون هذا الزعم فى حقه تعالى ، وأنتم مقرون أنه سبحانه غير محتاج إلى معين ، وأنه حى لا يموت .

أظننتم أنه تعالى يلهو ويلعب ؟ فيتخذ ولدا يسر بوجوده ، ويتلهى بشهوده من غير أن يكون له عمل فى ملكه ، ولا مصلحة

له فى وجوده ، أظننتم أنه تعالى فى سذاجة الأطفال ؟ يتخذ الولد ليبتهج برؤيته كما يبتهج الأطفال ، بما يتخذونه من (الشخوص) والدُّمى ، من غير أن يكون لها فى مجرى حياتهم ، سوى العبث والبهجة والانشراح وحب الامتلاك ، والتطلع إلى المستقبل الذى يبتغون الوصول إليه ، وتربية الملكات ، فإن ظننتم هذا فتلك كارثة لعقولكم ، نسأل الله أن يشفيكم منها ، تعالى الله الكامل فى صفاته عن أن يكون أمره كأمر الأطفال .

فإن وافقتمونا على نزاهة الله عن اتخاذ الولد لتلك المقاصد فعلى أى أساس زعمتم أن لله ولدا ، ولأى غرض اتخذه مادامت تلك الفروض السابقة مستحيلة عليه سبحانه ؟

وهناك بعض الطوائف اتخذت لله ولدا معينا ، ولم تعترف له تعالى بولد سواه ، وهؤلاء نناقشهم فنقول :

لماذا قصرتم الولدية على واحد بعينه ، مع أن كتبكم مليئة بنسبة الولدية إلى غير هذا الولد المعين ، ومن أمثلة ذلك جعل المطيعين أبناء الله تعالى ، أفلا تستفيدون من ذلك واحدا من أمرين : ؟ أن لا تقصروا الولدية على ولد بعينه ، بل تجعلون

جميع من وصف بها أبناء الله ، أو أن تحملوا البنوة على الطاعة والحب والإغراء ، فإنها آثار النبوة ولوازمها .

فإن نزلتم على رأينا قلنا لكم: إن الولدية بالمعنى الأول باطلة ومستحيلة لما قدمناه ، فلم يبق إلا حمل البنوة على ما يلزم منها من الحب والطاعة والإعزاز ، وهذا هو الذى كان يجدر بكم أن تعقلوه فى نصوصكم

وهذا هو الذى ذهبتم إليه فى النصوص فى حق العصاة أبناء الشيطان ، فلا بد من أن تذهبوا إلى مثله فى النصوص التى نسبت البنوة إلى الله تعالى ، وإلا لكان تحكما وترجيحا بلا مرجح .

أمّا ولادة ولد من غير أب ، فإنها لا تستوجب أن يكون الله تعالى أباه ، أرأيتم آدم أبا البشر ، أليس أعجب خلقاً ممن جعلتموه ولدا لله تعالى ، فإنه خلق بغير أبوين ، ولكنكم لم تجعلوه ولدا له تعالى ، مع أنه فى حكم القياس يقتضى أن تنسبوا إليه الولدية أكثر ممن نسبتموها إليه ، فحيث إنه لم يستحق عندكم وصف البنوة لله تعالى مع أنه خلق بلا أبوين ، فالآخر أولى ، لأن له أصلا واحدا من هذين الأصلين ، أما آدم فلا أب له ولا أم

ثم كيف يكون ولدالله القادر الحى الذى لا يموت ، ويسلم رقبته لأعدائه ليقتلوه ، أفلا يستطيع أن يرد أعداءه عنه ، كما يفعله — على الأقل — القادرون من البشر ، فكيف بابن الله القادر وكيف يموت ابن الله الحى الذى لا يموت؟

يقولون إنه فعل ذلك ليخلص المذنبين من ذنوبهم ، قلت : إن هذه ليست الوسيلة المثلى لذلك ، فإنه يستطيع أن يهديهم بحكم بنوته للإله ، فيحول قلوبهم من الشر إلى الخير ، أو أن يعفو عنهم ويريهم قدرة الألوهية فى التخلص من كيدهم وكرمه فى العفو عنهم ، بدلا من أن يظهر العجز لهم ، ويزيد آثامهم بقتلهم إياه .

فإن قلتم :إنه يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص بدون علاج وتلك صفات الألوهية ، قلت :إنه لم يفعل ذلك ، وإنما فعله الله على يده ، ولو كان هذا فعله هو لأحيى نفسه وأنقذها من قاتليها ، إن هذا الذى حدث منه أمر جزئى محدود وصغير جدًّا بالنسبة لمقدورات الألوهية ، وقد أجراه الله على يده ، ليكون آية لنبوته عند قوم يبالغون فى تكذيبه ووصفه بما يجرده من الكرامة على الله ، فكان لازما أن يظهره الله أمام قومه بمظهر

يبهرهم ، ويجعلهم يعرفون براءته مما نسبوه إليه وإلى أمه ، ويعيد له الاعتبار فى نفوسهم ، ويفهمهم أنه من الله بالمحل الكريم ، ويقيم له الحجة عليهم ، حتى يستجيبوا لما دعاهم إليه .

وقد جرت سنة الله فى معجزات رسله ، أن يكون من شأنها قطع ألسنة المعارضين ، وإبطال شبههم ، وهى فى كل نبى بحسب موقف أمته منه ، وبحسب عصره .

ومعجزات الرسل ليست من صنعهم ولا هم عليها بقادرين ، بل هى من صنع الله تعالى ، ولولا أن الله جعلهم رسلا، لما قدروا على الإتيان بها ،بل إن بعضهم كان يخاف منها أول ما أجراها الله على يده ، فموسى عليه السلام حين ألقى العصا فانقلبت حية خاف منها،فطمأنه الله ، وأمره أن يأخذها ولا يخاف ، وأفهمه أنه سيعيدها سيرتها الأولى ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة طه : «وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى (١٨) قال ألقها ياموسى (١٩)فألقاها فإذا هى حية تسعى (٢٠) قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى» (٢١) .

ويصور الله خوفه منها فى سورة النمل فيقول : « فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ ولىَّ مُدْبرا ولم يعقب . . » الآية (١٠)

وإذا كان الأمر كذلك لا يصح أن ينسب إحياءُ ميت وإبراءُ عليل ، إلى ألوهية من أجرى الله على يده ذلك ، فإنه لا يقدر على ذلك بنفسه ، بدليل أنه لا يقدر على أكثر مما أجراه الله على يده .

ولو أن المعجزات تدل على ألوهية من جرت على يده ، لكان على القائلين بذلك أن يزعموا إلهية موسى عليه السلام ، الذى فعل معجزات أضخم مما جرى على يد من زعموه ولدا ، فقد شق البحر بعصاه ، فكان فيه اثنا عشر طريقا يبسا (١) ، والماء من حولها كالجبال ، ثابت لا ينساب فى تلك الطرق مع سيولته

---

(١) رواه ابن كثير عن ابن عباس والدرى ، راجع ابن كثير فى تفسير الآية ٩٠ من سورة يونس والآية ٦٣ من سورة طه ، وراجع القرطبى فى تفسير الآية ٥٠ من سورة البقرة ، وقد كان بنو إسرائيل اثنى عشر سبطا ، كل سبط يجب أن يكون مستقلا عن الآخر فى أمره كله ، ولهذا أخرج لهم موسى بعصاه اثنتى عشرة عينا (قد علم كل أناس مشربهم) منها ، وكذلك فعل معهم فى عبورهم بحر القلزم إلى سيناء، فقد فتح لهم فى البحر اثنى عشر طريقا ، بين كل طريقين فرق كالطود العظيم ، أى فارق من الماء كالجبل العظيم ، كما قال تعالى فى سورة الشعراء «فأوحينا إليه أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » ٦٣ .

وقد كانت تكفيهم عين واحدة وطريق واحد ، ولكنهم كانوا مختلفين ، كما قال تعالى : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

وجرت الحياة على يده فى العصا ، فكانت حية تسعى ، والخشب اليابس الجاف أبعد ما يكون عن الحياة الحيوانية ، بخلاف الإنسان الذى حلّ به الموت ، فقد كان قبل الموت مليئا بالحياة وشتى أنواع الإحساس ، فإحياؤه أدنى مما صنعه موسى الذى لم يحظ بلقب الألوهية والبنوة .

وما قلناه فى موسى ومعجزاته ، يقال فى صالح وناقته التى خرجت من الجبل ، وانشق عنها الصخر .

والحديث فى ذلك يطول ، فحسبنا ما قدمنا .

إن الإله لا حاجه له أن يُلْبِسَ ولده جسد البشر ، ويرسله إلى عباده ليبلغهم عن أبيه ، ويخفق فى مهمته فى بنى قومه حتى يقتل فى سبيلها ، ويكون شأنه فى ذلك أدنى من شأن رسل البشر .

إن الإله (أوابنه) كما زعمتم ، يجب أن يتنزه عن صفات البشر ، وأخصها التجسد والتعرض للأذى .

إن الإله (أو ابن الله) كما زعمتم ، لا يصح فى العقول أن يسعه رحم امرأة ، وأن يترك هذا الملك والملكوت، ليعيش فى بطنها فى تلك الرقعه من الأرض ، ثم تنتهى مهمته إلى تلك النهاية الأليمة .

إن ذلك كله يفتقر إلى إعادة النظر فى تلك الدعوى الخطيرة ، أيظن هؤلاء السادة ، أن مُلْكَ الله هو هذه الأرض الحقيرة التى نعيش عليها .

إن لله ملايين المجرات ، وكل مجرة فيها ملايين الملايين من النجوم والكواكب ، ومن وراء ذلك عوالم لا يعلم كنهها سوى الخلاق العليم ، فكيف يترك ابن الله ذلك الملك والملكوت ليحبس نفسه فى بطن امرأة ، ثم ليحبس نفسه فى بقعة ضيقة من الأرض ، حتى ينتهى الأمر به إلى تلك النهاية الحزينة الفظيعة .

« ولم يولد » .

نفت هذه الجملة عن الله تعالى أن يكون له والد ، وهذا ما أجمعت عليه الأديان السماوية ، كما أجمعت عليه العقول السليمة ، وإليك فيما يلى الأدلة العقلية على ذلك .

لا يصح عقلاً أن يكون لهذا الإله العظيم ، الذى خلق الكون والد ، لأنه إما أن يدعى أن له آباء مسلسلين إلى مالانهاية وإما إلى حد معين ، وكل من الفرضين باطل ، فإن هؤلاء الآباء ، إما أن يكون الموت قد أصابهم ، وإما أن يكونوا باقين

أحياء ، فإن كانوا قد ماتوا فذلك الفرض مستحيل ؛ إذ كيف يكون خالقاً ولا يمنع عن نفسه الفناء ، إذنا نرى الأطباء من البشر يعالجون أنفسهم وغيرهم من أمراض من شأنها أن تميت ، فيمنعون مضاعفاتها ، ويوقفون فاعليتها بقدر طاقتهم ، فيَحُولُ علاجهم دون حصول الموت للمصابين بها ، والدليل على ذلك أنها قد تُصِيب غيرهم ولا يعالجون منها فتميتهم ، فإذا كان البشر يفعلون ذلك ، فكيف بالإله فى حق نفسه ؟

وإن كانوا باقين ، ولكنهم هرموا وضعفوا ، فذلك الادعاء باطل ، لأن الإله لم يستطع أن يدفع عن نفسه الهرم والضعف وتلك كارثة لا تجوز عقلا .

وإن كانوا أقوياء ، فما هى حاجة كل منهم إلى الولد ، إن الرجل من البشر ينجب الأولاد ليعينوه ، وما دام الإله قويا فلا حاجه له إلى من يعينه ، بل إن وجود الولد معه عبثٌ كما تقدم بيانه ، كما أنه لاحاجه له إلى من يرثه ، لأنه يستحيل عليه الموت ، فوجب أن لا يكون للإله ولد ، ومتى كان الإله لا يلد ، فإنه لا يكون له والد ، لأن الأبوة لا تكون إلا

عند إمكان البُنوَّة ، ومتى استحالت البنوة على الإله استحالت الأُبوة .

ومعلوم أن العقائد لا تقوم إلا على الدليل العقلى ، فاذا فقد الدليل ، فلا يمكن أن تعتقد عقيدة بدونه .

ومن الجميل أن تجمع الخلائق على أنه ليس للإله والد ، وقد سبق الكلام مستوفى على أنه ليس له ولد ، وقد أقمنا الدلائل مستوفاة على ذلك ؛ عند شرح قوله تعالى : « لم يلد » .

« ولم يكن له كفوا أحد » .

أى لم يكن له أحد مكافئا ومماثلا له فى شىء من صفاته .

فضائل سورة الإخلاص

أخرج البخارى وغيره عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن » .

وإنما كان ذلك ، لأن القرآن يشتمل على توحيد الله وسائر صفاته ، وعلى الأوامر والنواهى ، وعلى القصص والمواعظ وشئون الآخرة ، وهذه السورة قد تضمنت التوحيد وبعض صفات الله تعالى ، وذلك ثلث القرآن .

وأخرج الإمام مالك والترمذى والنسائى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ « أنه سمع رجلًا يقرأ : « قل هو الله أحد » فقال : وجبت ، فقيل يا رسول الله : ما وجبت : قال : وجبت له الجنة .

اللهم أدم علينا نعمة التوحيد ، ووفقنا لطاعتك ، وصلِّ اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

خاتمة

قصدنا بتفسير سورة الإخلاص بيان معناها ، والعقائد المطلوبة فيها ، وأقمنا الأدلة العقلية عليها ، رغبة فى أن يَعِيَها الشباب المتعطش إلى العقيدة الحقة ، فيجدها أمامه سهلة التناول ، واضحة البراهين ، حتى يبنى إيمانه على قواعد متينة ، فينعم بعقيدة لا تهزها العواصف ولا تعصفها الرياح القواصف .

ولم نقصد بنفى الولدية عن الله تعالى ، وإقامة البراهين عليها ، إلا شرح آية من آيات السورة ، وبيان الأدلة على المعنى المقصود ، تحقيقاً للهدف الذى أردناه ، وهو بناء عقيدة المسلم على نصوص القرآن ، وأهداف تلك النصوص ، وقيامها على الأدلة العقلية .

واتخاذُ الولد لله ، لم يقتصر على المسيحيين وحدهم فقد قالت اليهود: عزيرٌ ابن الله ، وقالت طائفة من الهنود : بوذا ابن الله ومخلص البشر ، ولدته أمه العذراء مايا ، وإنه الابن الوحيد لله ، وإنه قدم نفسه لأعدائه ليقتلوه من أجل تخليص البشر من الذنوب .

وقالت طائفة أخرى من الهنود : كريشنا ابن الله ، وهو المخلص والفادى ، وهو الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس ، وهو الأب والابن والروح القدس ، وكل من الطائفتين تدعى أن ابن الله عندها قتل وصلب لتخليص بنى الإنسان .

وقالت طائفة ثالثة من الهنود : إن الإله براهما (يعنون الله) انبثق عنه ولد يدعى (سيفا) موكل بالخراب والدمار .

وقال بعض المشركين إن الملائكة بنات الله ، وقال اليابانيون إن الإمبراطور ابن الإله .

فقوله تعالى : « لم يلد » وشَرْحُنا له ، إنما أريد منهما نفى الولد عن الله بكل اسم وبكل صورة ، وفى أى دين ، لتقرير عقيدة المسلم ، لا لغرض آخر ، والله تعالى هو الموفق .

محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

مقدمة :

يقول الله تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[1] » أى وما من أمة من الأمم إلا مضى فيها نبى ، ينذرها عاقبة ماهى عليه من الشر والعقائد والأخلاق الفاسدة ، ويرشدها إلى الله الذى احتجب عن العيون بذاته ، ليعرفوه بآياته ، ويتقوه فى أمرهم كله ، حتى يسلموا من عقابه .

ويقول الله فى شأن هؤلاء الرسل المنذرين : « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك »[2] ومن هذه الآية نعلم أن عدد الرسل أكثر ممن قصهم الله تعالى على نبيه .

وهذا يدل على أنه تعالى تعهد عباده بإرسال الأنبياء إلى مختلف الأمم لهدايتهم سواء السبيل ، فإن العقول قد تزل وتضل ، وذلك من فضل الله ورحمته بعباده .

---

(١) فاطر : ٢٤
(٢) غافر : ٧٨

وآخر هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، هو محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه الأنبياء ، المنقذين للبشرية من الضلال والهلاك .

ولقد كان العالم قبل مبعثه فى كل واد من أودية الشر يهيمون ، فهم ما بين عبادة للأنصاب ، وسجود للنجوم والكواكب ، وركوع للانسان والحيوان ، وإنكار للواحد الديان .

وكان أهل الكتاب قد تأثروا بجيرانهم الوثنيين ، فاتخذوا لهم إلهاً مع الله ، وسموه ابن الله ، وقد مر بك فى تفسير سورة الإخلاص ما صنع الهنود وغيرهم ، كما ادعى الوثنيون أن الملائكة بنات الله ، وفى ذلك يقول الله تعالى موبخا لهم : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولًا عظيما[1] » ويقول : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين[2] » .

وإنك لترى أهل الكتاب أخطئوا الخطأ كله فى وصف الإله بالجسمية والخطأ والندم والبكاء ، ومصارعة البشر طول الليل حتى الفجر ، وعجزه عن التغلب عليهم ، كما وصفوه

---

(١) الإسراء : ٤٠ (٢) الزخرف : ١٦

بالأكل والشرب وغير ذلك من النقائص ، « تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا » سبحانه هو فوق الخواطر والظنون .

وكل ما خطر ببالك ، فالله تعالى بخلاف ذلك .

وكانت الأمم مغلوبة على أمرها لملوك جائرين ، وولاة ظالمين وشيوخ للقبائل متجبرين .

وكان يقتسم العالم أمتان كبيرتان (الفرس والرومان) والحرب بينهما سجال ، فيوماً يكون الغلب للفرس ، وآخر يكون الغلب للرومان ، وكانت الأمم الضعيفة المحكومة بهما ، وقودًا للحروب المتتابعة بينهما ، وطحناً لرحى القتال التى لا تنفك عن الدوران .

وكانت أموالهم نهباً لسادتهم ، وسَلباً سهلًا للمسيطرين عليهم ، ولم يكن الحكم فيهم إلا بشريعة الغاب ، وبقانون الفتك والعذاب ، والويل كل الويل لمن تأوه أو شكا .

وكانت الحرب بين القبائل تشب بين آن وآخر لأتفه الأسباب ، فكثيرًا ما يعلو لهيبها من أجل شاة رعت في كلإ الحمى ، أو حماية لمستجير وإن كان آثماً ، أو بغير ذلك من صغائر الأمور .

وما أفظع ما كانت تنتهى إليه حروبهم من الخراب والدمار، فكم من قبيلة طحنتها قبيلة ، وكم من فصيلة أبادتها فصيلة .

وكانت الخمر أم الخبائث فاشية بينهم ، تحرضهم على الإثم وتدعوهم إلى البغى ، وتفتك بعقولهم وأجسادهم ، وتقضى على أموالهم .

وكان الخمول مخيما عليهم ، والبطالة منتشرة فيهم ، والجهل ضارباً أطنابه بينهم .

وكانت سوق الأخلاق الوضيعة نافقة ، وسوق الأخلاق الرفيعة كاسدة ، وبلغ بهم السفه أنهم كانوا يرتزقون بأعراض إمائهم ، ويتكسبون من ممارستهن الرذيلة ، ولا يجدون من ذلك حرجا فى صدورهم ، ولا نكيرًا من ضمائرهم .

وقد امتد الفساد إلى حرائرهم ، فلذا عمدوا إلى قتل بناتهم ، صغيرات ، حتى لا ينحرفن كبيرات ، وكانوا يقولون : وأد البنات من المكرمات ، إلى غير ذلك من المفاسد الكثيرة ، فكان من رحمة الله أن بعث فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولًا ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الكفر إلى

الإيمان ، ومن الفوضى إلى النظام ، ومن التفرق إلى الاجتماع ، ومن التنافر إلى التعاون ، ومن القتال إلى السلام ، ومن الجور إلى العدل ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، وكانوا بعد أن شرفهم الله بالإسلام كما قال تعالى فى آخر سورة الفتح :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيما » .

آيات الرسالة المحمدية

قبل أن نتكلم عن آيات الرسول صلى الله عليه وسلم نقول :

كل نبي له آية تدل على أنه مكلف فى أمته بالتبليغ عن الله تعالى ، ولكن آيات الأنبياء والمرسلين كانت كونية ، انقضت بانقضاء الجيل الذى شاهدها ، وكل جيل يأتى بعد

ذلك يمكن أن يتشكك فى صدق روايتها ، أو أن يزعم أنها سحر — مع العلم بأن القرآن يعترف بها .

وقد خص الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، وهو معجزة خالدة باقية بقاء الزمان ، ولا مجال لرميها بالسحر عند العقلاء المنصفين .

أما ادعاء المشركين أنها سحر ، فهو من باب التخبط ، لأن القرآن ليس مادة قابلة للسحر ، فهو خطاب للعقول لتحكيمها فيما جاءت به الرسالة المحمدية من وحدة الصانع وعظيم صفاته ، وحقه على عباده ، والعمل ليوم الدين .

ودليل تخبطهم ، أنهم سرعان مايعدلون عن وصفه بالسحر إلى وصفه بأنه قول البشر ، وفى ذلك يقول الله تعالى حكاية عن بعضهم لما سمع القرآن : « فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر[1] » ، وكما قالوا فيه إنه قول البشر ، قالوا إنه شعر وإنه أساطير الأولين ، وكل ذلك يناقض بعضه بعضا ، ويدل على حيرتهم فى أمر القرآن وسيطرته على العقول ، وتأثيره فى النفوس ، ولو أنصفوا الحق وأنصفوا أنفسهم ،

---

(١) المدثر : ٢٤ ، ٢٥

لأدركوا أنه نداء الحق ، وصيحة الصدق ، وأنه لذلك يسرى في قلوب العقلاء في حنان ، ويحملهم على الإيمان .

هذا عتبة بن ربيعة يقول لقريش في ناديهم : ألا أقوم إلى هذا – يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم – فأعرض عليه أمورًا لعله يقبل منا بعضها ويكف عنا ، فوافقوه على عروضه ، فعرض عليه أمورًا ، منها أن يكون رئيساً لهم وملكا عليهم ، وأن يجمعوا له من المال ما يكون به أغناهم ، وخيره في اختيار واحد مما عرضه باسم قريش عليه ، فقال له : أفرغت يا أبا الوليد فاسمع منى ، فقرأ عليه سورة فصلت ، حتى بلغ قوله تعالى : « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » ٣٨ .

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة بفيه ، وناشده الرحم أن يكف خوفاً من أن ينزل بهم العذاب .

ثم قال له النبى صلى الله عليه وسلم، أسمعت ياأبا الوليد، قال : سمعت ، فلما رجع عتبة إلى أصحابه في النادى ، قال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذى ذهب به ، ثم سألوه : ما وراءك ؟ قال : والله إنى سمعت قولًا

ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش : أطيعونى وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، وأخبرهم أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك بفيه وناشده الرحم أن يكف ، وقال لقومه : لقد علمتم أن محمدًا لا يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب . .

هذه خلاصة ما حكاه البيهقى ، وهى ناطقة بأن هذا الزعيم القرشى لم تمنعه عداوته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، من أن ينفى عنه السحر والشعر والكهانة ، وهذا يدل على ما قلناه من أن القوم كانوا متخبطين فى شأنه ، ولم يكونوا صادقين فيما قالوه فيه .

وهذا الوليد بن المغيرة زعيم قريش فى الفصاحة ، قال للنبى صلى الله عليه وسلم : اقرأ على ، فقرأ عليه « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فقال : أَعِدْ علىَّ ، فأعاد النبى صلى الله عليه وسلم قراءتها عليه ، فقال : إن له لحلاوة ، وإن عليه

لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمُغْدق ، وما يقول هذا بشر ..

ثم قال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا أعلم بالرَّجَز منى ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مُغْدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى — رواه ابن إسحق والبيهقى .

تلك هى شهادة الأعداء فيه ، والفضل ماشهدت به الأعداء ،

إنك حين تقرأ القرآن العظيم ، تحس أنك تقرأ كتابا سماويا جادًا ، مصلحا لا عوج فيه ولا لغو ولا التواء ، ولا تناقض ولا فحش فى حق الأنبياء ، كبعض الكتب التى تنسب إلى الأديان السماوية ، إنه يدعو إلى التأمل فى آيات الخالق العظيم وتعظيمه ، وصلاح المجتمع ، ومناشدة العقل لينظر ، وتحكيمه فى قضاياه المختلفة ، فلو لم يكن فيه إلا هذا لكفاه دليلا على كونه من عند الله ، فاقرأه بإمعان لتتحقق مما أقول.

وقد أحسن بعض أهل الحق إذ يقول : إن هذا القرآن لو وجد مكتوبا فى كتاب ، ولم يكن يعلم أنه منزل من عند الله ،

لشهدت العقول السليمة بأنه من عند الله ، وأن البشر لا قدرة لهم على مثله ، فكيف إذا علم أنه جاء به أصدق الخلق وأتقاهم ، وأخبر أنه من عند الله .

وقد جاء فى هذا الكتاب الإلهى العظيم «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» وهذا قول صادق حتى الآن وسوف يظل كذلك إلى أن تقوم الساعة ، وقد تحدى العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة منه ، فلم يستطيعوا ، ولو قدروا لأجابوه ليبطلوا حجة النبى صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان العرب — وهم البلغاء والفصحاء — لم يستطيعوا الإتيان بمثله فمحمد صلى الله عليه وسلم مثلهم ، لا يستطيع أن يأتى بمثله فوجب أن يكون من عند الله تعالى .

ومن آيات صدق الرسول ، فى أن القرآن من عند الله تعالى ما يلى :

(١) أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب[1] ، فلا يتأتى لأمثاله فى هذا العصر الجاهلى أن يأتى بمثله ، كما أنه حتى الآن وإلى

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة العنكبوت «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون — ٤٨ — بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون» ٤٩

أن تقوم الساعة لا يتأتى ذلك لأحد ولو لمثقف ، كما أنه لايُدَّعى أنه اقتبس ما فيه من كتب أهل الكتاب ، لأنه يخالفها فى العقائد وتنزيه الله عن مشابهة الحوادث ، وغير ذلك من الوجوه التى أخذت على تلك الكتب ، ولأنه لم يعرف أنه حدس إلى أحد من علماء أهل الكتاب حتى يأخذ عنه .

كما أنه صلى الله عليه وسلم ، مكث بينهم أربعين عاما ، لايحسن نظم كتاب ، ولا يحفظ خبرا ولا يروى أثرا ، حتى أكرمه الله بالوحى فدعاهم وحاجهم به ، وأنه لم يكن به حاجة إلى أن يتعرض لأذاهم ، ولكن مشيئة الله ، التى دفعته إلى أن يخوض مع المشركين معركة الحق ، ويتحمل متاعبها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلا تعقلون » ،

(٢) أنه معروف بالصدق ، كما شهدت به المراجع المختلفة ، وكما شهد قه خصومه ، ومن كان صادقاً عند الناس ، فلا يكذب على الله .

(٣) أنه لا مصلحة دنيوية له فى دعوى النبوة ، وقد أجمعت المراجع على زهده فى الدنيا ، وأنه لم يورث أهله درهما ولا ديناراً ، بل جعل ما تركه صدقه ، وتلك لعمرو الحق من أعلى الشهادات على صدق نبوته

(٤) أن المدعى الكاذب لابد أن يأتى فى تصرفه ما يفضحه ، وهذا لم يحدث أصلا ، ولذا كان المسلمون يتفانون فى الإخلاص له ، ويفدونه بأرواحهم ، ويؤثرونه على أهليهم ، ويؤيدونه فى دعوته .

(٥) أن دينه وتقواه لا يسمحان له بأن يدعى نبوة كاذبة ، خوفا من الله الذى يعلم أنه شديد البطش بالكاذبين ، وكان كثير البكاء خوفا من الله تعالى ، مع أنه خاتم المرسلين ، وكان خوفه منه خوف إجلال وإعظام لمقامه وكان يقول : « إن أخشاكم وأعلمكم بالله لأنا » .

(٦) أن دينه يساير العقل والعلم ، ويخلو من السخافات التى انطوى عليها غيره ، وحسبك أن تقرأ القرآن لتعلم أنه كتاب إلهى هادف ، يؤيده العلم والعقل ، ويتجه إلى خير البشر فى الدنيا والآخرة .

(٧) أنه صلى الله عليه وسلم أيد بمعجزات كونية عديدة ، منها انشقاق القمر ، وتكثير الطعام ، ونبع الماء الغزير من بين أصابعه وكفايته للجيش ، ونزول المطر ورفعه بدعائه ، وتسبيح الطعام بين يديه ، وتسليم الحجر والشجر عليه ، وحنين الجذع الذى يخطب إلى جواره ، بعد أن تركه ليخطب على منبر صنع

له ، وكان يسمع صوته ، وقد رواه بضعة عشر صحابيا ، ولم يسكن حنينه حتى نزل وضمه ، ومنها شفاء الأمراض والحروق بالدعاء ، وغير ذلك من المعجزات الكثيرة التى ثبتت برواية الصحاح ، فإن ادعى مدع كذاب أن ذلك سحر ، فما وقع من الرسل قبله كذلك ، وحاشاه وحاشاهم ، فهم أهل الصدق ، والسحر خيال ، والمعجزات حقائق .

نفى شبهات

قد يقول قائل : إن شريعة الإسلام ، أباحت تعدد الزوجات إلى أربع ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم ، تزوج إحدى عشرة امرأة ، وتوفى عن تسع ، فكيف نؤول ذلك .

فالجواب أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عاش إلى سن الثالثة والخمسين بزوجة واحدة ، ولو كان هدفه النساء لتم له الإكثار منهن وهو فى شبابه بمكة [١] ، كغيره من الناس أشرافهم وصعاليكهم ، فلقد كان الزواج عندهم غير مشروط بعدد معين [٢] ، وقد كان صلى الله عليه وسلم فى جماله وشرفه

(١) وبخاصة بعد وفاة خديجة .

(٢) روى أن رجلا اسمه غيلان أسلم وعنده عشر نساء ، فقال له صلى الله عليه وسلم : «أمسك أربعا وفارق سائرهن» .

ورجاحة عقله فى التجارة وغيرها ، ما يجعل كل امرأة تهفو إلى التزوج به .

ولم تتعدد زوجاته إلى هذا الحد إلا بعد الهجرة ، وبعد سِنّ الشيخوخة ، وكان هذا التعدد لأغراض إنسانية ، وحكم عظيمة ، منها مواساة أبى بكر وعمر وتقدير موقفهما من الدعوة الإسلامية بالزواج من ابنتيهما ، ولا شىء كالزواج فى تدعيم المودة ، وتقوية الروابط ، ومنها تأليف أبى سفيان بالزواج من ابنته ، رغبة فى أن يدفعه ذلك إلى الإسلام ، إلى غير ذلك من الأغراض الشريفة الإنسانية والإسلامية ، وإنى أحيل القارىء على الكتب التى ألفت فى هذا الشأن ، لتتبع الأسباب التى حدث بسببها هذا التعدد ، وهى كثيرة .

« والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »

وصف الله الذين آمنوا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، ونحوه قوله تعالى : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » وهذا الوصف يجب أن يتحقق فيمن جاء بعدهم من المؤمنين ، فعليهم أن يكونوا أسودًا كواسر على من عاداهم ، وأن لا يوالوهم على حساب

إخوانهم المسلمين ، وأن يكونوا يدًا واحدةً وقلباً واحدا ، وعاطفةً واحدة ضد الكافرين الذين يتربصون بهم الدوائر ، وعليهم أن يتحابوا فى الله ، ويتراحموا فيما بينهم .

وليعلم المسلمون اليوم ، أنه لولا شدة السلف الصالح على الكفار ، وتراحمهم فيما بينهم ، لما عز الإسلام ، ولما غلب جميع الأديان وظفر بكيانه العظيم فوق الكرة الأرضية ..[1]

فمهادنة أعداء الإسلام وملاينتهم ، تطمعهم وتؤلبهم على المسلمين ، وفقدان التراحم بين المسلمين يحل عقدتهم ، ويفرق جمعهم ، ويضعف أمرهم ، ويهيء السبيل لاستيلاء أعدائهم عليهم .

وهذا مع — الأسف — هو الذى كان بين المسلمين فى الحقب المتأخرة ، فهان أمرهم ، وضعف شأنهم ، واستولى عليهم أعداؤهم ، وغيّروا دين بعضهم كما حدث لمسلمى الأندلس — ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم — ولقد صدق الحكيم إذ

(١) شرعت الحرب فى الإسلام دفاعا عن النفس ، ووقاية لكيان المسلمين من أعداء متربصين ، قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم» وقال : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » .

يقول : إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية . وماذا ننتظر لقوم قال فيهم الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

فأين هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ولقد شاء العلى الكبير ، أن يفيق المسلمون من سباتهم ، ويعملوا على الخلاص من غاصبيهم ، فنال بعضهم حريتهم ، ولا يزال باقيهم جاهداً فى سبيلها .

وليعلم المسلمون اليوم ، أن أمرهم لن يستقيم إلا إذا عملوا بكتاب الله وسنة رسوله ، وتركوا التراخى فى الدين ، وأعرضوا عن تقليد غيرهم فى التحلل والتميع ، حتى يستحقوا وعد الله تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

والتراحم بين المسلمين ، يتناول أن يحب المرء لأخيه مايحب لنفسه ، ويكره له مايكره لنفسه ، وأن يحافظ على حرمة جاره ، ويشاركه فى سرائه ، ويعينه فى ضرائه ، ويحييه بالسلام

والمصافحة عند لقائه ، ولأهمية التحية بالسلام ، شرعه الله فى ختام الصلاة .

أما المصافحة فقد أخرج فيها أبو داود عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غُفِر لهما » وفى رواية للترمذى « مامن مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا » .

ويتناول التراحم رحمة صغيرنا ، وتوقير كبيرنا ، أخرج ابن أبى شيبة وأبو داود عن عبد الله بن عمر مرفوعا « من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا فليس منا » .

وروى أحمد وابن حبان والترمذى وحسنه ، عن أبى هريرة قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لاتنزع الرحمة إلا من شقى » .

« تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا »

يصف الله أصحاب الرسول الذين معه ، بأنهم مستمرون على الصلاة من آن لآخر ، لا يبغون من صلاتهم هذه سوى فضل الله ورضوانه ، أما الرياء فقد كان أبعد شىء عن قلوبهم .

ثم وصف الله أثر مواظبتهم على صلاتهم بقوله :

« سيماهم فى وجوههم من أثر السجود »

أى علامتهم ظاهرة فى وجوههم من أثر الصلاة ، والمراد بهذه العلامة ، مايبدو على الوجوه من الخشوع والطمأنينة والجهد فى صلاة الليل ، أما الأثر الذى يكون فى الجبهة ، فليس هو المقصود ، أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد أنه قال: « ليس له أثر فى الوجه ، ولكنه الخشوع ، وقال منصور : سألت مجاهدا : هذه السيما هى الأثر يكون بين عينى الرجل ، قال : لا ، وقد يكون مثل ركبة البعير ، وهو أقسى من الحجارة .

وحكى عن بعض المتقدمين أنه قال : كنا نصلى فلا يرى بين أعيننا شىء ، ونرى أحدنا الآن يصلى فنرى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندرى أثقلت الرءوس، أم خشنت الأرض .

وأخرج الطبرانى والبيهقى فى سننه ، عن حميد بن عبد الرحمن قال : كنت عند السائب بن يزيد ، إذ جاءه رجل وفى وجهه أثر السجود، فقال : لقد أفسد هذا وجهه ، أما والله ماهى السيما التى سمى الله تعالى ، ولقد صليت على وجهى منذ ثمانين سنة ، ما أثر السجود بين عينى !

فإذا برزت خشونة فى الجبين من أثر السجود بلا تعمد بالضغط لإحداثها ، فهى بعض آثار السجود الخالص لوجه الله ، وقد كان مثل ذلك موجودا فى جبهة على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنه ، وفى جبهة على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وكان يقال لهما ذوا الثفنات .

أما تعمد إحداث تلك الثفنات فمنهى عنه ، قال صلى الله عليه وسلم « لا تَعْلِبُوا صُوَرَكم » أى لاتحدثوا فيها سمة وعلامة من العَلْبْ بفتح العين وسكون اللام ، وهو الأثر .

ومن العلماء من قال : إن سيماهم فى وجوههم من أثر السجود تكون فى الآخرة ، أخذا من حديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط والصغير ، وابن مردويه بسند حسن عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ـ يوم القيامة » .

وبهذا أخذ ابن عباس والحسن ، ولا يبعد أن تكون لصلاتهم تلك الآثار فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى :

« ذلك مثلهم فى التوراة »

يعني أن ماتقدم من أوصاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قد جاء مثله في التوراة ، وفيما يلي ما عثرنا عليه من وصف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيها :

روى الواقدي عن ثعلبة بن أبي مالك ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، سأل أبا مالك [1] — وكان من أحبار اليهود — فقال : أخبرني بصفات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة ، فقال إن صفته في توراة بني هرون التي لم تغير ولم تبدل هي : أحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وهو آخر الأنبياء ، وهو النبي العربي الذي يأتي بدين إبراهيم الحنيف ، يأتزر على وسطه ، ويغسل أطرافه ، في عينيه حمرة ، وبين كتفيه ختم النبوة ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، يلبس الشملة ، ويجتزئ بالبُلْغة [2] ، ويركب الحمار ، ويمشي في الأسواق ، سيفه على عاتقه ، لا يبالي من لقي من الناس ، معه صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ، ولو كانت في عَاد ما أهلكوا بالريح ، ولو كانت في ثمود ما أهلكوا بالصيحة ، يولد بمكة ، وهو أمي لا يقرأ المكتوب ، وهو الحمَّاد ، يحمد الله شدة ورخاء ،

---

(١) واسمه ثعلبة بن هلال .

(٢) أي يكتفي بالقليل من الطعام .

سلطانه بالشام ، وصاحبه من الملائكة جبريل ، يلقى من قومه أذى شديدا ، ثم يدال عليهم ، فيحصدهم حصدا ، وتكون الواقعات بيثرب منها له ومنها عليه ، ثم له العاقبة .

معه قوم هم أسرع إلى الموت من الماء من رأس الجبل إلى أسفله ، صُدُورهم أناجيلهم ، وقربانهم دماؤهم ، ليوث النهار ، رهبان الليل ، يرعب عدوه مسيرة شهر ، يباشر القتال بنفسه ثم يخرج ويحكم ، لا شرط معه ولا حرس ، الله يحرسه :

وقد تبين من هذا النص وصف ، لأصحاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأنهم أشداء على الكفار ، إذ كانوا أسرع إلى الموت من الماء من رأس الجبل ، وأن قربانهم دماؤهم ، كما تبين أنهم ركع سجد ، من قوله : (رهبان الليل) وقوله : (معهم صلاة لو كانت فى قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان)

وبعد كتابة ماتقدم عثرت على وصف لأصحاب الرسول فى سفر أشعياء اصحاح (٣٣) فقر (٣) ونصه (واستعلن من جبل فاران ، ومعه ألوف الأطهار ، فى يمينه سنة من نار ، أحب الشعوب ، جميع الأطهار بيده : ويلاحظ أن جبل فاران بمكة

وقد جاء بإنجيل برنابا الكثير عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه التصريح باسمه الشريف ، وسيأتي الكلام عليه قريبا

ثم قال تعالى :

« ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره » . . . الآية

المراد بشطء الزرع فراخه ، وهى ما تخرج منه وتتفرع على شاطئيه ، — أى جانبيه — قال صاحب اللوائح : شَطأَ الزرعُ وأَشطأَ إذا أَخرج فراخه ، وهو فى الحنطة والشعير وغيرهما.

وقال أَبو حيان فى كتابه (البحر) : أَشطَأَ الزرع أَفرخ ، والشجرة أَخرجت غصونها ، وقال صاحب القاموس : الشطء فراخ النخل والزرع ، أو ورقه .

ومعنى الآية : وَصِفَةُ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الإنجيل ، أَنهم يشبهون زرعا نبت من التربة بغير أوراق ، ثم أخرج أوراقه وفروعه ، فآزرت هذه الأوراق والفروع ذلك الزرع — أى قوّته وأعانته على أن يتحمل الرياح فى هبوبها وكلما كثرت هذه الفروع حول الساق ، ازداد الزرع قوة واستغلظ — أى أصبح غليظا بعد ما كان دقيقاً — واستوى

بسبب ذلك على سوقه ، أى استقام على قصبه وأصوله ، يعجب الزراع بفروعه وغلظه وكثافته وخضرته ، وجماله وحسن منظره .

قال صاحب الكشاف : هذا مثل ضربه الله لبدء ملة الإسلام ، وترقيه فى الزيادة ، إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، قام وحده ، ثم قواه الله تعالى بمن معه ، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها .

وقال الألوسى : ظاهره أن الزرع هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والشطء هم أصحابه ، فيكون مثلا له ، ولأصحابه ، لا لأصحابه فقط ، وروى هذا المعنى عن الواقدى وابن عباس .

ويمكن أن يقال : إن الضمير فى « ومثلهم فى الإنجيل » لأصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقط ، بدليل قوله تعالى قبل ذلك : « ذلك مثلهم فى التوراة » وهذا يقتضى أن المراد من الزرع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقد كانوا فيها ضعافاً كأصول الزرع ، فلما هاجروا وانضم إليهم أهل المدينة وغيرهم قوى شأنهم ، كما يقوى شأن الزرع

بما ينبت حوله من طاقاته ، ويدل لذلك قوله عقبه : « يعجب الزراع » فإن الزراع لا يعجبون بزرع واحد حوله طاقاته ، بل بزروع كثيرة حولها طاقاتها .

ولا يصح أن يراد من الزرع النبي صلى الله عليه وسلم ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : « ليغيظ بهم الكفار » فإن معناه ، ليغيظ النبي الكفار بأصحابه الذين أصبحوا قوة كالزرع ، حوله طاقاته ، بعد أن كانوا بمكة ضعافاً ، كالزرع بدون طاقات ، فطمع فيهم المشركون وآذوهم .

ولاشك أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أصبحوا بعد الهجرة قوة ، غاظ النبي بهم الكفار ، أى أدخل عليهم الغيظ ، بما أحدثته مؤازرتهم له من القوة والانتصار عليهم ، وظهور حقه على باطلهم ، ثم تتابعت الانتصارات على الكفار بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى تحقق قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » فقد انتشر الإسلام ، وكثر معتنقوه بين الأديان فى مشارق الأرض ومغاربها ، وحل النور والهدى والخير ، محل الظلم والضلال والشر .

وقد جاء فى الإنجيل مثل هذا المثل المضروب فى الآية ، فقد أخرج ابن جرير الطبرى ، وعبد بن حميد عن قتادة « مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وجاء فى إنجيل متى إصحاح (٢) ما يؤكد ماصرحت به الآية الكريمة من علو الرسول وإغاظته لأعدائه ، فقد جاء فيه : « أما قرأتم قط فى الكتب أن الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب ، كان هذا وهو عجب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم ، إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه .

فهذا النص ، يفيد أن سلطان الرب الذى أعطاه لبنى إسرائيل ، سيزول عنهم إلى أمة إسماعيل ، الذى تنكر له بنو يعقوب ، مع أنه عمهم ، وسيعطى لأمة إسماعيل حين يظهر حفيده محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد تنبأ هذا النص بأن من تنكر لمحمد صلى الله عليه وسلم من بنى إسرائيل يتحطم ، ومن يحاربه منهم يسحقه .

وقد حدث هذا كله والحمد لله ، فقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل ، ولما بغى عليه اليهود سحقهم ومن بقى منهم حيا أجلاهم عن بلاد الحجاز ، فتفرقوا فى شعاب الأرض .

وجاء فى إنجيل برنابا فى قوة الرسول على الكافرين ورحمته للمؤمنين ، الفصل السادس والتسعين ، أن السيد المسيح عليه السلام قال : ولكن عندما يأخذنى الله من العالم ، سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة ، بأن يحمل عادمى التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله ، فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى ، حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله ، الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام ، وعبدة الأصنام ، وسينزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا .

وجاء فى الفصل الثالث والستين بعد المائة من إنجيل برنابا المذكور ، من فقرة (٣) إلى فقرة (١١) : حينئذ قال يسوع : أيها الإخوة : إن سبق الاصطفاء لَسِرٌّ عظيم ، حتى إنى أقول

لكم الحق ، إنه لا يعلمه جليًّا إلا إنسان واحد ، وهو الذى تتطلع له الأُمم ، والذى تتجلى له أسرار الله تجليا ، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم ، لأن الله سيظللهم كما تظللنا هذه النخلة ، بل إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية ، هكذا تقى رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان ، أجاب التلاميذ : يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذى تتكلم عنه الذى سيأتى إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب : إنه محمد رسول الله ، ومتى جاء إلى العالم فسيكونَ ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الفريدة التى يأتى بها ، كما يجعل المطر الأرض تعطى ثمرا بعد انقطاع المطر وقتاً طويلا ، فهو غمامة ملأى برحمة الله ، وهو رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث :

ومن ذلك النص نعلم أن إنجيل برنابا جاء فيه اسم الرسول صلى الله عليه وسلم صريحا ، وموصوفا بأنه يبعثه الله رحمةً للعالمين ، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، وهذا هو ما جاء عنه فى القرآن الكريم .

ولصراحة هذا الإنجيل حرمه الملك قسطنطين ، وعاقب من يوجد معه ، وبقى خفيا فترة طويلة ، حتى عثر عليه فى المكتبة البابوية بروما ، فترجم إلى عدة لغات ، ثم ترجم إلى اللغة العربية عن الترجمة الإنجليزية ، بقلم أحد المسيحيين المصريين.

وكان العثور عليه فى أوائل هذا القرن ، فشكرا للعناية الإلهية ، التى أتاحت للناس أن يطلعوا على إنجيل لا يكتم الحق ، ولم تعمل فيه أيدى المغرضين بالطمس والتحريف والإبهام .

وقد ختمت الآية بقوله تعالى :

«وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما» أى وعد الله أصحاب النبي الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة لما عسى أن يحدث منهم من المعاصى ، وأجرا عظيما على إيمانهم وعملهم الصالح ، وفى ذروتة مؤازرتهم فى نشر الإسلام .

ومن المعلوم أنه ليس أحد من البشر معصوما من المعاصى سوى الأنبياء ، فلا غرابة فى أن يحدث من الصحابة بعض المعاصى ، وقد تفضل الله تعالى بالوعد بغفرانها .

وقد وصفهم بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات ، بعد وصفهم بأنهم مع الرسول ، إما لمدحهم والتعليل لاستحقاقهم المغفرة والأجر العظيم[١] ، وإما لإخراج من كان منهم معه من المنافقين فإنهم كانوا معه بأجسادهم لا بقلوبهم[٢] .

والله تعالى نسأل أن يعصمنا من الزلل ، ويوفقنا لصالح العمل ، حتى نكون أهلا لهذا الوعد الكريم بالمغفرة والرحمة ، فإنه وإن كان بحسب المنطوق خاصا بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو بحسب الهدف عام لهم ولغيرهم ، إذا ساروا على سننهم من الإيمان والعمل الصالح ، والشدة على الكفار والتراحم بينهم ، وإقامة الصلاة وابتغاء الفضل والرضوان من الله .

---

(١) و (من) فى قوله : «منهم» على هذا للبيان ، وليست للتبعيض ، كما فى قوله تعالى : «فاجتنبوا الرجس من الأوثان» فإن الأوثان كلها رجس .

(٢) و (من) على هذا الوجه فى قوله : «منهم» للتبعيض ، لإخراج المنافقين من الوعد بالمغفرة والرحمة .

دعائم الأمة الرشيدة فى الإسلام

لابد لكل بُنْيان من دعامة وأساس يقوم عليه ، وكلما كان الأساس قويا عميقا ، كان البنيان متينا ثابتا ، لاينال منه الزمان ، ولا يؤثر فيه مرور الحدثان ، إلا أن يشاء الله رب العالمين .

والأمة المسلمة هى خير أمة أخرجت للناس ، بما بين الله لها فى كتابه العزيز ، من أسس متينة تقيم عليها بنيانها ، فلا يستطيع الزمان أن ينال منها ، ولا معاول الهدم أن تؤثر فيها ، كلما أقامت مجتمعها على الأسس التى ارتضاها الله لها .

وقد اشتمل القرآن الكريم على قواعد متينة ينبغى أن تقوم عليها الدولة المسلمة ، منها ماهو أساس لعقيدتها ، ومنها ماهو أساس لعبادتها لربها ، ومنها ماتبنى عليه أخلاقها ومعاملاتها .

ومن أجمع الآيات لكثير من هذه الأسس قوله تعالى :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون [1] »

ويعتبر ماجاء فى هذه الآية دستورا لرفيع السلوك ، وكريم السجايا ، أخرج الماوردى وأبو نعيم — فى معرفة الصحابة —

(١) النحل : آية ٩٠

عن عبد الملك بن عمير قال : «بلغ أكثم بن صيفى [١] مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه ، فانتدب رجلان [٢] ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : نحن رسل أكثم ، يسألك : من أنت وما جئت به ؟ فقال : النبى صلى الله عليه وسلم : أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، ثم تلا عليهما هذه الآية «إن الله يأمر بالعدل... الآية ، فقالا : اردُدْ علينا هذا القول ، فردده – عليه الصلاة والسلام – عليهما ، حتى حفظاه ، فأتيا أكثم بن صيفى فأخبراه ، فلما سمع الآية قال : إنى لأراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مَذَامّها ، فكونوا فى هذا الأمر رءوساً ولا تكونوا فيه أذنابا » .

وروى أن الرجلين قالا لأكثم : أبى محمد أن يرفع نَسبهُ ، فوجدناه زاكى النسب .

وكانت هذه الآية سبب استقرار الإيمان فى قلب عثمان بن مظعون ، ومحبته للنبى صلى الله عليه وسلم ، كما أخرجه الأمام أحمد والطبرانى والبخارى فى الأدب .

---

(١) كان أكثم حكيم العرب

(٢) أي خرجا وتكفلا بالذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولكون هذه الآية أمًّا للفضائل جامعة لفروعها ، أقامها عمر بن عبد العزيز حين آلت إليه الخلافة ، مقام ماكان خطباء بنى أمية يأثمون به من سبٍّ الإمام علىٍّ فى أواخر خطبهم ، بسبب الخلاف الذى نشب بينه وبين معاوية ابن أبى سفيان الأموى ، وكان ذلك من أعظم مآثر عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — وبذلك انتهت تلك الجريمة الكبرى التى كانوا يقترفونها .

وقال بعض أولى العلم : لو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية ، لكانت كافية فى كونه تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة ، ولذا جاءت عقب قوله تعالى : «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »

العدل فى الأمر كله

أمر الله فى هذه الآية بثلاث من أمهات الفضائل ، ونهى عن ثلاث من أمهات الرذائل .

وأول ماأمر الله به فيها (العدل) ، والعدل هو الإنصاف ، وإن شئت فقل هو التوسط فى الأمور بين طرفى الإفراط والتفريط .

ولاشك أن لكل معاملة جوانب ثلاثة، إفراطا وتفريطا ووسطا بينهما ، وخير هذه الجوانب الوسط بين الإفراط والتفريط ،]

فى الحديث ينبغى الاعتدال والصدق ، وتجنب الكتمان والكذب ، وفى الزوجات تنبغى التسوية بينهن فى القسم والنفقة والبشاشة واللين ، وتجنب الإهمال والظلم لبعضهن ، وتمييز بعضهن بالرعاية والعناية ، وفى الجيران يعدل بينهم بالاعتدال فى معاملتهم وعدم التفرقة بينهم بالإفراط أو التفريط .

وفى الإمارة والرياسة يعدل الحاكم بالتسوية بين الناس فى حسن المعاملة والشفقة ، والحرص على المصلحة ، ودرء المظالم ، فلا يفرق فى ذلك بين غنى وفقير ، وعظيم وصعلوك ، وقريب وغريب .

وفى القضاء يعدل القاضى بين الخصوم، بإنصاف المظلوم ورد حقه إليه ، وإن كان ظالمه ذا جاه ورياسة ، وكما يجب العدل فى ذلك ، يجب أيضا فى النظر إليهما والخطاب معها ، ووقوفهما أو جلوسهما أمامه .

ومما جاء وصفاً لعدل الحاكم ما أخرجه ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى ، أنه قال : دعانى عمر بن عبد العزيز

فقال لى: صف لى العدل ، فقلت بخ ![1] سألت عن أمر جَسِيم ، كن لصغير الناس أبا ، ولكبيرهم ابنا ، وللمثل منهم أخا ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم ، وعلى قدر أجسادهم ، ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا فتكون من العادين .

وقد عرفت مما قاله محمد بن كعب، أنه تحدث عن عدل الحاكم ، فى حين أن عمر كان يسأل عن العدل مطلقاً ، وقد حمله على جعل إجابته فى حدود عدل الحاكم ، مراعاة منصب السائل ومكانه من أمته ، وهذا لا ينافى اتساع رقعة تطبيقه ودخوله فى جميع معاملات العباد .

الحسن البصرى يصف الحاكم العادل

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كتب إلى الحسن البصرى ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه مايلى ، وهو من أحسن ماكتب فى هذا الشأن :

اعلم ياأمير المؤمنين أن الله تعالى جعل الإمام العادل قوام كلِّ مائل ، وقصد كلِّ حائر ، وصلاح كلِّ فاسد . وقوة كل ضعيف ، ونَصَفَة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

---

(١) أى عظم الأمر وفخم .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالراعى الشفيق ، الحازم الرفيق ، الذى يرتاد لماشيته أطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكفيها من أذى الحرّ والقرّ .

والإمام العادل ياأمير المؤمنين ، كالأب الحانى على ولده . يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا ، ويكسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد وفاته .

والإمام العادل ياأمير المؤمنين كالأمّ الشفيقة ، البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربّته طفلا ، تسهر لسهره ، وتسكن لسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، تفرح لعافيته ، وتغتم لشكايته .

والإمام العادل كالقلب بين الجوارح ، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ، والإمام العادل هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد لله ، ويقودهم إليه .

ولاتكن ياأمير المؤمنين فيما ملّكك الله ، كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرّد العيال ،

فأفقر أهله ، وأهلك ماله .

واعلم ياأمير المؤمنين أن الله تعالى ، أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم » انتهى .

القاضى لا يقبل الشفاعة فى حدود الله

لا يحق لحاكم أو قاض أن يقبل شفاعة فى حدود الله تعالى ، أو حقوق عباده ، فنى الصحيحين عن عائشة – رضى الله عنها – أن قريشا أهمهم أمر المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد ؟ فلما كلمه فيها ، قال صلى الله عليه وسلم : يا أسامة أتشفع فى حدٍّ من حدود الله ؟ إنما هلك بنو إسرائيل أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ ، والذى نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وكان أشرفَ البطون فى قريش ، مخزوم وبنو عبد مناف ، فلما سرقت المخزومية وثبتت السرقة عليها ، لم يبال الرسول بنسبها ، ولا يقبل فيها شفاعة حبيبه أسامة بن زيد ، بل لامه على شفاعته فى حدٍّ من حدود الله ، وصل أمر الفصل فيه إليه ،

وضرب المثل بسيدة نساء العالمين ، وقال : لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها — وحاشاها أن تسرق — رضى الله عنها — ليعلم الناس أن حدود الله وحقوق عباده، متى وصلت إلى القاضى أو الحاكم ، لا يحق له أن يتراخى فى تطبيق حكم الله فيها ، ولو على أقرب المقربين له .

وروى مالك فى الموطأ أن جماعة أمسكوا لصًّا ليرفعوه إلى عثمان — رضى الله عنه — فتلقاهم الزبير فكلمهم فيه [1] ، فقالوا : إذا رفع الأمر إلى عثمان فاشفع فيه عنده ، فقال : « إذا بلغت الحدود السلطان ، فلعن الله الشافع والمشفع » [2] .

وروى أبو داود فى سننه عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله ، فقد ضادَّ الله فى أمره ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم ، لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال

(١) أي طلب منهم العفو عنه قبل أن يصل أمره إلى عثمان — رضى الله عنه — .

(٢) إنما تقطع اليد فى السرقة ، ردعا للسارق وأمثاله عن السرقة ، فان السراق لو تركوا من غير عقاب رادع ، لعظم شرهم ، ولسفكوا الدماء فى سبيل ما يسرقون — كما هو حاصل الآن — ولا قطع إلا فيما سرق من حرز مثله ، لا من مال مهمل غير حريز ، لأن المال المهمل يغرى بالسرقة ، ويعاقب سارق المال المهمل عقوبة دون القطع ، لردعه .

فى مسلم دَيْن ماليس فيه ، حُبِسَ فى رَدْغة الخبال[1] ، حتى يخرج مما قال ، قيل يارسول الله : وما ردغة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار ، فذكر النبى صلى الله عليه وسلم الحكام والشهداء والخصماء ، وهؤلاء أركان الحكم » .

وكما لا يحل التراخى فى حكم الله بشفاعة أحد ، لا يحل بهدية ولا رشوة ، ومن عطل حكمه تعالى ، وهو قادر على إقامته ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلًا ، وهو ممن يشترى بآيات الله ثمناً قليلًا ، كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره .

المأمون ينصف امرأة من ولده

أخبر الحافظ فى تاريخ دمشق ، بإسناده إلى العباس بن محمد الهاشمى قال :

إنى لواقف بين يدى المأمون ، إذ دخلت المرأة متظلمة فى

(١) فى القاموس : الردغة الماء والطين والوحل الشديد ، ثم قال : وردغة الخبال يسكن ويحرك —عصارة أهل النار

أخريات الناس وعليها أطمار بالية ، وقد أذّن المؤذن الأولى وهمّ بالقيام فقالت :

يا خير منتصف يهدى لك الرشد
ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك مليكَ الملك أرملةٌ
عدا عليها فلن يقوى به أحد
فابتز منى ضياعى بعد منعتها
وقد تفرّق عنى الأهل والولد

فأجابها المأمون مرتجلًا :

فى دون ماقلت عيل الصبر والجلد
منى ودام به فى قلبى الكمد
هذا أوان صلاة العصر فانصرفى
وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا
ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

قال : فجلس يوم الأحد ، ودخلت المرأة فقال لها : وأين الخصم ؟ فقالت : هو بين يديك ، وأشارت إلى ولده العباس ،

فقال لأحمد بن أبي خالد : خذ بيده فاجلسه معها ، ففعل ، فادَّعت عليه بالضيعة ، وجعلت ترفع صوتها عليه ،فقال لها أحمد : اخفضى من صوتك فإنك بين يدى أمير المؤمنين ، فقال : اسكت فإن الحق أنطقها ، والباطل أسكته وظهر الحق لها ، فقضى لها عليه ، وأمر بردِّ ضيعتها إليها ، وغرم ولده ما أخذ من ريعها .

القاضى شريك يحكم على أمير الكوفة

روى عمر بن هياج بن سعد قال : أتت امرأة يوما شريك بن عبد الله قاضى الكوفة– وهو فى مجلس الحكم –فقالت : أنا بالله ثم بالقاضى ، قال : من ظلمك ؟ قالت الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين ، كان لى بستان على شاطىء الفرات ، فيه نخل ورثته عن أبى ، وقاسمت إخوتى وبنيت حائطا ، وجعلت فيه رجلا فارسيا يحفظ النخل ويقوم به ، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتى وساومنى ورغَّبنى فلم أبعه ، فلما كانت هذه الليلة ، بعث بخمسمائة غلام وفاعل ، فاقتلعوا الحائط ،فأصبحت لا أعرف مِنْ نَخْلى شيئا ، واختلط بنخل إخوتى ، فقال : يا غلام : أحضر طِينَةً ، فاحضرها ، فختمها وقال للمرأة : امْضِى بها إلى بابه حتى يحضر معك ، فجاءت المرأة بالطينة المختومة ، فأخذها الحاجب

ودخل بها على موسى بن عيسى فقال : قد أُعْدِى القاضى عليك[1] وهذا ختمه ، فقال : ادع لى صاحب الشرطة فدعا به ، فقال : امض إلى شريك وقل له يا سبحان الله . ما رأيت أعجب من أمرك ، امرأة ادّعت دعوى لم تصح ، أَعْدَيتَها علىَّ — أى أعنتها ونصرتها علىَّ — قال صاحب الشرطة : إنْ رأى الأمير أن يعفينى من ذلك ، فقال : امض ويلك ، فخرج وقال لغلمانه : اذهبوا واحملوا إلى حبس القاضى بساطا وفراشا وما تدعو الحاجة إليه .

ثم مضى إلى شريك ، فلما وقف بين يديه أدى الرسالة ، فقال لغلام المجلس : خذ بيده فضعه فى الحبس ، فقال صاحب الشرطة : « والله قد علمت أنك تحبسنى ، فقدمت ما أحتاج إليه إلى الحبس » .

وبلغ موسى بن عيسى الخبر ، فوجه الحاجب إليه ، وقال له : رسول أدَّى رسالة فأى شيء عليه ؟ فقال شريك : اذهبوا به إلى رفيقه فى الحبس ، فحبس فلما صلى الأمير موسى العصر ، بعث إلى إسحق ابن الصباح الأشعثى ، وإلى جماعة من وجوه الكوفة أصدقاء القاضى شريك وقال لهم : أبلغوه السلام ، واعلموه أنه استخف بى ، وأنا لست كالعامة ، فمضوا إليه وهو جالس فى مسجده بعد صلاة العصر

---

(١) أى استعين به عليك .

فأبلغوه الرسالة ، فلما انقضى كلامهم قال لهم: مالى أراكم جئتمونى فى غُبْرة من الناس فكلمتمونى[1] ، مَنْ هنا من فتيان الحىّ؟ فأجابه جماعة من الفتيان ، فقال : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل منهم فيذهب به إلى الحبس ، ماأنتم إلا فتنة وجزاؤكم الحبس ، قالوا له : « أجادٌّ أنت؟ ، قال : حقًّا حتى لا تعودوا لرسالة ظالم » ، فحبسهم ، فركب موسى بن عيسى فى الليلة إلى باب السجن ، وفتحه وأخرجهم كلهم .

فلما كان من الغد وجلس شريك للقضاء ، جاء السجان فأخبره ، فدعا بالقمطر[2] فختمه ، ووجه به إلى منزله ، وقال لغلامه : الحق بنقلى[3] إلى بغداد ، والله ما طلبنا هذا الأمر منهم ، ولكن أكرهونا عليه ، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز حين تقلدناه منهم ، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد ، وبلغ الخبر موسى بن عيسى فركب فى موكبه فلحقه ، وجعل يناشده الله ، ويقول : « يا أبا عبد الله : تثبّت ، انظر ، إخوانك تحبسهم ؟

---

(١) الغبرة بضم الغين المعجمة لون الغبار ، أى مالكم جئتمونى من أجل جماعة فى لون الغبار لإعانة الظالم .

(٢) القمطر بوزن هزبر — مايصان فيه الكتب .

(٣) أى بمتاعى .

دَع أعوانى ، قال : نعم لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه ، ولست ببارح أو يردّوا جميعا إلى السجن ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى ، فاستعفيه مما قلدنى ، فأمر موسى بردّهم جميعا إلى السجن وهو واقف والله مكانه ، حتى جاء السجان فقال : قد رجعوا جميعا إلى الحبس ، فقال لأعوانه ، خذوا بلجام دابته بين يدى إلى مجلس الحكم ، فمروا به بين يديه حتى دخل المسجد ، وجلس مجلس القضاء ، فجاءت المرأة المتظلمة فقال : هذا خصمك قد حضر ، فقال موسى : —وهو مع المرأة بين يديه — أنا قد حضرت ، وأولئك يخرجون من الحبس ، فقال شريك : أما الآن فنعم ، أخرجوهم من الحبس ، فقال : ماتقول فيما تدعيه هذه المرأة ، قال : صدقت ، قال : فترد ماأخذت منها ، وتبنى حائطها سريعا كما كان ، قال : أفعل ذلك ، قال شريك للمرأة : أبقى لك عليه دعوى ؟ قالت لاوبارك الله عليك وجزاك خيرا ، قال : قومى فقامت من مجلسه ، فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأجلسه فى مجلسه وقال : « السلام عليك أيها الأمير ، أتأمر بشئ ؟ فقال : أى شئ آمر به وضحك ، فقال شريك : أيها الأمير ؟ ذاك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حق الأدب ، فقام الأمير

وانصرف وهو يقول : « من عظّم حق الله أذل الله به عظماء خلقه » ألاترى معى أيها القارئ الكريم ، أن هذا نموذج ممتازمن عدالة القضاء فى الإسلام وقدسيته ،وحرمة القاضى وعزته وحريته .

الإحسان

بعد أن أمرنا الله بالعدل أمرنا بالإحسان ، وهو القيام بالأمر حسبما يليق به شرعاً ، وهو يعم فى التطبيق العقائد والعبادات ، والأعمال والأقوال والأخلاق .

فالإحسان فى العقيدة يكون بالتوحيد للخالق ونفى الشريك عنه ، ووصفه –جل وعلا – بكل كمال ، وتنزيهه عن كل نقص .

والإحسان يكون فيها أيضا بالإيمان برسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – وبما أنزله الله عليه من القرآن الكريم .. ويكون كذلك بالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره .

ومن ينحرف عن هذا الإحسان فهو من الكافرين الهالكين .

والإحسان فى العبادات أن تأتى بها على وجهها ، بأركانها وشروطها المشروعة من الله على لسان حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، مع إخلاص النية فى أدائها لله رب العالمين .

فإن تركتها أو تركت بعضها ، أو لم تحقق شرطاً من شروط صحتها ، فاتك الإحسان ، واتسم عملك بالقبح ، وكنت بهذا التفريط المعيب من الخاسرين » .

وإن استوفيتها بأركانها وشروطها ، ووشيتها وجملتها بالنوافل والإخلاص ، عظمت درجة الإحسان بقدر ما أضفت إلى واجباتها من النوافل والإخلاص .

وأعلى درجات الإحسان فى العبادة « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » كما قال صلى الله عليه وسلم ، فإنك إن تمثلت فى ذهنك عظمة الخالق ، وأنت تؤدى العبادة له ، وكنت فى ذلك كأنك تراه ، أو لم تبلغ ذلك القدر العظيم من الاستحضار القلبى ، ولكنك تدرك أنه تعالى يراك أثناء أدائها ، فأنت بلا شك ستكون حريصاً فى سرك ، على أن تكون بحيث ترضى الله تعالى فى حركاتك وسكناتك وخواطرك ، وخشوعك ، حتى تبلغ القمة من الكمال .

أرأيت لو كنت أمام ملك من ملوك الأرض ، بحيث تراه أو يراك ، فماذا أنت فاعل فى مراسيم الطاعة له ؟ إنك بلا شك مستبذل وسعك فى إبرازها على وجه الكمال أداء وإخلاصا ، حتى

بعلم إخلاصك فيحسن جزاءك ، فما ظنك بمثولك بين يدى ملك الملوك الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

فإذا حصلت على إحدى درجات الكمال من الإحسان ، أحرزت من رضا الله وجزائه بقدر درجة إحسانك .

وأما إحسانك فى الأقوال ، فبأن تكون فى حدود الاعتدال ، بحيث تؤلف القلوب ولا تنفرها ، وتجمع بين الناس ولا تفرقهم ، وتكون خالية من الخشونة والتخنث ، ومن الصَّخَب والفحش .

وكلما اختلطت بآيات قرآنية ، أو أحاديث نبوية ، أو حكم تربوية ، ارتفعت مكانتها فى الإحسان ، ونالت الرضا والثواب من الرحيم الرحمن ، بقدر ما تضمنه من الأغراض والأهداف الكريمة ، والنصوص القرآنية والنبوية الموجهة ، وهذا لا يمنع من طرائف الأحاديث البهيجة التى تبعث على البهجة والغبطة ، تنشيطاً للنفوس ، ومنعا لها من السأم والملل ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً .

وأما الإحسان فى الأعمال ، فبإتقان الصنعة والحرفة ، وأدائها لمستحقها على أحسن وجوهها .

فإذا كنت أجيرا وفيت العمل الذى أجرت عليه ، وأجدته كما لو عملته لنفسك .

وإذا كنت موظفا فى الدولة ، أعطيتها حقها من الزمن المقرر ، والعمل المتقن ، والإنجاز المعتدل ، ويسرت لأبناء وطنك مصالحهم ، وأكرمت يدك عن تناول الرشوة فى سبيل تيسيرها لهم ، وأكرمت لسانك عن البذاء تلهب به كرامتهم .

وإذا كسبت لمعاشك فمِن جد ومن مصدر شرعه الله وأباحه ، وإذا كنت من الزراع هيأت أرضك للزراعة بعناية ، وأحسنت انتقاء البذور وتعهدتها بعد الزرع بالرى والتنظيف حتى يتضاعف حصادها ، ويكثر خيرُها .

وإذا كنت من رجال الْعِلْم أو القَلَم ، رَبَأْتَ بنفسك عن أن تقول ولا تفعل ، وأن ترشد ولا تسترشد ، وأن تأمر ولا تأتمر ، وأن تنهى ولا تنتهى .

والناس فى هذا اللون من الإحسان درجات متفاوتة ، بعضهم فى السماء وآخرون فى الغبراء .

وأما الإحسان فى الأخلاق ، فيكون بالصدق والعفاف ، والمروءة والنجدة ،والعفة والألفة ، وعلو الهمة ، وإباء الضيم ،

ولين العريكة وحسن الجوار ، والبشاشة وحسن اللقاء ، والصبر وسعة الصدر ، وصلة الرحم والبر باليتامى والمساكين ، والحلم وكظم الغيظ ، وأن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، قال تعالى : « والكاظِمين الغيظَ والعافين عن النّاس واللهُ يحبُّ المحْسِنِينَ » : إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق .

والناس فى هذا النوع متفاوتون فى الثواب ، حسب تفاوتهم فى مكارم الأخلاق .

مأثورات فى مكارم الأخلاق

لما كانت مكارم الأخلاق ذات منزلة شريفة فى المجتمع الإنسانى ، عُنيت بها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واهتمت بها حكمة الحكماء .

وحسبُك فى فضلها ، أنّها جعلت من أَهم الأَغراض لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم – كما قال – : « بعثت لأُتمم مكارم الأَخلاق » . وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بأَعلى مكارم الأَخلاق فى قوله : « وعبادُ الرحمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وإذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » .

وقد جاء فى السنة أنه لا يظفر بمزيد حبه صلى الله عليه وسلم سوى أحسن المسلمين أخلاقا ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطؤون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » كما جاء فيها وصف المسلم بقوله صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » أخرجه البخارى .

وأعلى مراتب الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، فإنه هو الفضل ، أما إحسانك إلى من أحسن إليك ، فهو مع حسنه يعتبر مكافأة وليس فضلا .

ومن مأثور الحكماء فى حسن الخلق : من حسن خلقه فهو من نفسه فى راحة ، والناس منه فى سلامة ، ومن ساء خلقه ، فهو من نفسه فى بلاء ، والناس منه فى عَنَاء .

وقال حكيم فى العشرة الزوجية : عاشر أهلك بأحسن أخلاقك ، فإن الثواء فيهم قليل : يريد أن من كان بقاؤه فى أهله قليلا ، وكان يقضى معظم وقته فى عمله ، فينبغى أن يكون مع أهله حسن الخلق حين يكون بينهم ، حتى يشعروا بالحنين إليه حين يغيب عنهم ، وتكون أخلاقه الكريمة سلواهم فى غيبته ، أما إن ساء خلقه فيهم فإن أمر أهله فى غيبته يكون على العكس من ذلك .

وجاء فى سوء الخلق قول حكيم :من ساء خلقه ضاق رزقه : وذلك واضح ، فإن سوء الخلق يصرف الناس عن معاملة صاحبه ، فيضيق رزقه ، واعلم أن أكثر ما يطلق عليه الإحسان فى العرف هو التصدق والفضل ، ومنه ما أخرجه البخارى فى تاريخه عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – « أنه مر بقوم يتحدثون فقال: فيم تتحدثون؟ فقالوا نتذاكر المروءة ، فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل فى كتابه إذ يقول : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » فالعدل : الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، فما بقى بعد هذا ؟ » .

ولكن تفسيره بما يعم المروءة وغيرها أولى – على نحو ما ذكرناه من قبل – ليتناول جميع المقاصد الشرعية ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى تفسير الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وقوله تعالى : « وأحسن كما أحسن الله إليك » وقوله « فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها » حيث قابل الاحسان بالإساءة .

حسن الخلق له حدود

حسن الخلق له حدود ، إذا جاوزها انقلب إلى الضد ، انظر مثلا إلى لين الخلق ، إذا استعمل مع من لا يقدره ولا يستفيد به خرج عن الإحسان ، وأتى بعكس المطلوب .

فالذى ينبغى مع من لا يبالى ولا يرعوى عن الغَى ، هو الانقباض والحزم والقسوة أحيانا ، قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما .·. فليقسُ أحيانا على من يَرحَمُ

وانظر إلى المودة : إنها تكون فضيلة وهى فى حيز الاعتدال ، فإذا بولغ فى إظهارها كانت ملقا ، وإذا كانت غير نابعة من القلب كانت نفاقا ، والملق ذُلّ ، والنفاق لؤم ، وليس لمن وصف بهما وُدّ مبرور ، ولا خلق مشكور ، ولا أثر حميد ، عن جابرٍ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرُّ الناس ذو الوجهين ، يلقى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » .

ويرحم الله إبراهيم بن محمد إذ يقول :

وكم من صديق وُدّه بلسانه .·. خؤون بظهر الغيب لايتَذَمَّ[1]

يضاحكنى عجبا إذا ما لقيته .·. ويَقْذَعُنى[2] منه إذا غبت أسهم

كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا .·. وفى غيبه إن غاب صابٌ وعلقم

وبالجملة ينبغى أن تكون مكارم الأخلاق فى حدودها المشروعة ، حتى لا تنقلب إلى الضد .

---

(١) أى لا يستنكف ولا يمتنع .

(٢) مضارع قذعه إذا رماه بالفحش .

الانتصار للحق من الإحسان

من أخلاق الإسلام الانتصار للحق وردّ الباطل ، حتى لايجترئ الناس على حرمات الله تعالى ، ويعم الفساد الأرض ، كما حدث فى بنى إسرائيل ، فإنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

وكان سلفنا الصالح يؤدون واجبهم فى ذلك ، لايخافون لومة لائم ، ولا عقاب أمير .

ومن أمثلة ذلك ما رواه عمر بن حبيب القاضى قال : حضرت مجلس الرشيد يوما ، فجرت مسألة فتنازعها الخصوم ، وعلت الأصوات فيها ، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فدفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام ، حتى قال قائلون : أبو هريرة مُتَّهم فيما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وصرَّحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ، ونصر قولهم ، فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل ، صدوق القول فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلىَّ الرشيد نظر مغضب ، وانصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث أن جاءنى غلام فقال : أَجِبْ أمير المؤمنين إجابة مقتول ،

وتحنط وتكفن ، فقلت : اللهم إنك تعلم أننى دفعت عن صاحب نبيك فسلمنى منه ، فأدخِلت على الرشيد وهو جالس على كرسى حاسر عن ذراعه ، بيده السيف وبين يديه النِّطع[١] فلما بصر بى قال : ياعمر : ماتلقانى أحد من الدفع والرد بقولى بمثل ماتلقيتنى به وتجرأت على ، فقلت يا أمير المؤمنين : إن الذى قلته ووافقتَ عليه وجادلتَ عنه إزراءٌ[٢] على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى ما جاء به ، فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذابين ، فالشريعة باطلة ، والفرائض فى الأحكام والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة ، فالله اللهَ يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو أن تصغى إليه ، وأنت أولى أن تغَارَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أحييتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله ، وكررها ثلاثا ، وروى أنه أكرمه بعطاء قدره عشرة آلاف درهم .

---

(١) النطع : بساط من الجلد، وهو بفتح النون وكسرها مع سكون الطاء ، وقد ينطق بوزن عنب

(٢) الإزراء : العيب، تقول : أزرى فلان بفلان أو على فلان ، أدخل عليه عيبا أو أمرا يريد أن يلبس به عليه « قاموس

إيتاء ذى القربى

ذو القربى : هو صاحب القرابة ، والمراد به ما يعم جميع الأقارب من جهة الأم أو الأب ، وقد أمر الله بإيتائهم من النعم التى أنعم الله بها عليك ، على وجه الهدية والبر أو الصدقة.

وتخصيص ذوى القرابة بالذكر بعد الأمر بالإحسان العام ، لتوكيد حقهم فى البر والصلة ، وأوليتهم على سواهم ، وقد أكد الله فى التوصية بذوى الأرحام فقال : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » .

ولا ريب أن إيتاءهم يوثق صلة المودة بينهم وبين قريبهم الذى أعطاهم ، ويجبر خواطرهم ، ويملأ قلوبهم بالرضا عنه ، أما العكس فإنه يورث الكراهية له فى نفوسهم ، ويحفظهم عليه ، ويفرحهم فى نوائبه ، وربما يحرضهم بخله وشحه على الكيد له والإضرار بمصالحه .

فعلى المسلم أن يحرص على البر بأقاربه ، فإن ذلك من صدق الإيمان ، وحسن النظر فى العواقب .

الفحشاء

اعلم ياأخى المسلم – وفقنى الله وإياك – أن الفحشاء ما فحش وقبح من قول أو فعل ، وفسرها بعض المحققين : بما اشتد قبحه

من الذنوب ، ورأى الإمام ابن عباس أن المراد بها في الآية الزنى ، ولعل تخصيصه إياها بالزنى ، لدخول غيره من الفواحش في المنكر الذى سيأتى شرحه بمشيئة الله تعالى ، والفحشاء : أول الآثام الثلاثة التى نهى الله عنها فى تلك الآية ، ولا يوجد بعد الشرك بالله وعقوق الوالدين أفحش من الزنى ، فإنه فاضح للعرض ، مفسد للخلق ، مستتبع لآثار سيئة فى المجتمع الإسلامى فالزانية إن كانت خالية من الزوج ، شاع فى الناس فحشها ، وأبغضها أهلها ، ولفظها المجتمع .

وربما تخلص منها ذووها بقتلها إنهاء لفضيحتهم ، واستردادا لبعض كرامتهم ، وإن وضعت ثمرة إثمها ضاقت بها ذرعا ، وربما فكرت فى وأدها ، تخلصا من لصوق عارها بها ، وتخفيفا للحملات الثقيلة عليها ، ووقفا لسريان الشائعات حولها .

فإن لم تفكر فى وأدها ، فكرت فى إلقائها فى صناديق القمامة ، أو على أبواب المساجد ، أو فى زاوية من الطريق ، ومَنْ يدرى؟ فربما مات الوليد بردا أو جوعا ، أو التهمَتْهُ الحيوانات الجائعة ، وما عَرضته للردى فى كل ذلك سوى هذه الأم الآثمة الخاطئة ،

وإن كانت متزوجة لوثت فراش الزوجية برجس خيانتها ، وهى تخدع زوجها بمظهر الطهر والعفاف الذى تبدو به أمامه .

ولا تقتصر خيانتها على ذلك الإثم ، بل تتجاوزه إلى إفساد أخلاق فتياتها وفتيانها ، وإلحاق ولدها من سفاحها بزوجها — وهو منه برىء — وإعطائه بالبنوة المزعومة نصيبا من تركته بهتانا وزورا ، والله تعالى من ورائها محيط .

أما الزانى فهو حيوان عديم الشرف ، ساقط الكرامة ، مستهين بأعراض الناس ، لايهمه سوى نزواته ، وإن خرّب البيوت ، ودمّر الأسر ، وفضح الأعراض ، ونشر الرذيلة ، وتسبب فى قتل وليده من السفاح أو قتل أمّه من ذويها ، فهل يوجد فرق بينه وبين أحقر حيوان يقضى نزواته ، ولا يفكر فى آثارها .

ولخطورة الزنى على المجتمع ، شرع الله فى أول التشريع الإسلامى بالنسبة للزانيات ، وجوب إمساكهن فى البيوت ، حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، وشرع لها ولرفيقها وجوب الإيذاء ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة النساء : «واللاتى يأتين

الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا(١٥) واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابًا رحيمًا(١٦) ».

ثم تدرج الحكم إلى جلد البكر — ذكرا كان أو أنثى مائة جلدة ، وذلك بقوله تعالى فى سورة النور: « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين(٣) ».

أما المتزوج منهما فقد جعل حده الرجم حتى الموت ، حتى تحسم جريمة الزنى الفظيعة من المجتمع الإسلامى ، بعد أن كانت فاشية عند العرب وغيرهم ، وقد ثبت هذا الحكم بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فى قصتى ماعز والغامدية وغيرهم ، فقد أقر كل منهما بزناه ، فحاول الرسول أن يصرفهما عن إقرارهما بمختلف الطرق الحكيمة ، فأصرا على الاعتراف ،

خوفا من الله تعالى ، فأمر النبي برجمهما ، ولو أنهما نكلا عن الاعتراف لما رُجِمَا ، وفى رحمة الله تعالى متّسع لهما إن تابا وأصلحا ، وسيأتى ثبوت الرجم بقول الرسول ، كما ثبت بفعله ،ولا شك أن تشريع إعدام الزانى المحصن من عدل الله وحكمته ، أليس من دمّر البيوت أن يدمر ، ومن حطم الفضيلة جدير به أن يحطم ، واحدة بواحدة !!

ولو أن حد الزنى نفذ علانية كما أمر الله تعالى : «وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين» لتلاشت هذه الجريمة من المجتمع الإسلامى .

والحكمة فى تدرج عقوبة الزناة ، انتشاره بكثرة قبل أن يصدر الله تشريعه ، وأنسب شىء لعلاج الأمراض الخلقية الواسعة الانتشار أن تعالج تدريجيا ، كما حدث فى تحريم شرب الخمر .

وإليك بعض الأحاديث النبوية فى عقوبة الزانى وفظاعة جرمه .

عقوبة الزانى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، إلا بإحدى ثلاث، الثيّب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» أخرجه الشيخان وغيرهما.

والمراد بالثيب الزانى من سبق له زواج من الذكور أو الإناث، مع الدخول وقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم، شيخ زان، وملك كذاب، وعائل(١) مستكبر» أخرجه مسلم والنسائى.

وحق الجار أن يأمن شرّ جاره وبوائقه، ليعيشا فى أمن وسلام وكرامة: وإلى ذلك دعا الإسلام وأوصى به، فإن اعتدى جار على عرض أخيه، فقد خانه فى موطن الأمن، وارتكب ذنبا من أعظم الذنوب، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «سألت رسول الله

---

(١) العائل الفقير.

صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أعظم ؟ قال :أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت إن ذلك لعظيم ، : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قلت : ثم أىٌّ ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك ، أخرجه الشيخان وغيرهما .

ومن غاب زوجها فأغراها جارها أوغيره على الفاحشة، فإن جريمته تكون أفحش ، لأن استدراجها يكون أيسر وحمايتها تكون أوجب ، والعقاب على إغوائها يكون أشنع وأفظع .

وقد عظّم الله جريمة الزنى حتى جعلها قريبة من الكفر ، قال صلى الله عليه وسلم: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » من حديث أخرجه البخارى وغيره .

عمر يعفو عمن قتلت مغتصبها

لم يكن عمر بن الخطاب لينام عن جريمة غامضة ، حتى يفك طلاسمها ، ويصل بفراسته وحكمته إلى تفاصيلها ويقضى فيها .

قال الليث بن سعد: أتى عمر بن الخطاب يوما بفتى أمرد، وجد قتيلا على قارعة الطريق، فسأل عمر عن أمره واجتهد، فلم يقف له على خبر، فشق ذلك عليه فقال: اللهم أظفرني بقاتله، حتى إذا كان على رأس الحول، وجد صبيٌّ مولود ملقى بموضع القتيل، فأتى به عمر فقال: ظفرت بدم القتيل إن شاء الله تعالى، فدفع الصبي إلى امرأة وقال: قومي بشأنه وخذي منا نفقة، وانظري من يأخذه منك، فإذا وجدت أمرأة تقبله وتضمه إلى صدرها، فأعلميني بمكانها، فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة: إن سيدتي بعثتني إليك، لتبعثي بالصبي معي حتى تراه وترده إليك، فقالت: اذهبي به إليها وأنا معك، فدخلتا بالصبي على سيدة الجارية، فلما رأته أخذته فقبلته، وضمته إليها، فاذا هي ابنة شيخ من الأنصار، فأتت عمر فأخبرته، فاشتمل على سيفه ثم أقبل إلى منزل المرأة، فوجد أباها متكئًا على باب داره، فقال يافلان: مافعلت ابنتك فلانة؟ قال: جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين، هي من أعرف الناس بحق الله وحق أبيها، مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها.

فقال عمر : قد أحببت أن أدخل إليها فأزيدها رغبة فى الخير وأحثها عليه ، فدخل أبوها ودخل عمر ، فأمر من عندها فخرج ، وبقى هو والمرأة فى البيت ، فكشف عمر عن السيف وقال : أصدقينى وإلا ضربت عنقك – وكان لايكذب – فقالت : على رسلك ، والله لأصدقنّك ، إن عجوزا كانت تدخل علىّ فاتخذتها أمّا ، وكانت تقوم من أمرى كما تقوم الأم ، وكنت لها بمنزلة البنت ، ومكثنا كذلك حينا ، ثم إنها قالت : يا بنية : إنه قد عرض لى سفر ، ولى ابنة فى موضع أتخوف عليها فيه أن تضيع ، وقد أحببت أن أضمها إليك حتى أرجع من سفرى ، فعمدت إلى ابن لها شاب أمرد ، فهيأته كهيئة الجارية ، حتى اغتفلنى يومًا وأنا نائمة ، فما شعرت حتى علانى وخالطنى ، فمددت يدى إلى شفرة كانت إلى جنبى فقتلته ، ثم أمرت به فألقى حيث رأيت ، فاستملت منه على هذا الصبى ، فلما وضعته ألقيته فى موضع أبيه ، فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك ، فقال : صدقت ثم أرضاها ودعا لها وخرج ، وقال لأبيها : نعمت الابنة ابنتك ، ثم انصرف .

تلك هى نهاية القصة العجيبة التى رواها الإمام الليث ابن سعد ، وهى بلا شك تحذر كل مسلم ومسلمة من خطر

العجائز الماكرات اللائى يدخلن البيوت ، فإن خداعهن وكيدهن عظيم ، كما تحذر الفتيات من التأثر بإ رائهن بمعسول الأمانى ، وحملهن على صحبتهن لتحقيقها ، فماتلك الأمانى سوى السم الزعاف ، وماحتميتها إلا الضياع والفتنة والهلاك .

وبعد هذا التحذير نقول : انظر إلى مبلغ حرص عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ،على تعقب الجريمة ، حتى يأخذ مرتكبها حقه من العقاب ، ليستتب الأمن فى ربوع المسلمين ، كما تنبئ عن سعة أفقه فى تنفيذ أحكام الله تعالى ، فإنه قد أعفاها من عقوبة القصاص فى جريمة القتل التى ارتكبتها ، لأنها كانت دفاعا عن العرض ، وانتقاما لإهداره ، والدفاع عن إهدار العرض ، يهدر دم من يحاول اغتصابه ، فكيف بمن اغتصبه فعلا ، وكانت المتغصبة غير قادرة على رده وهى نائمة ، فضلا عن أنها تحسبها فتاة .

المنكر

هذا هو الإثم الثانى من الآثام الثلاثة التى تنهى عنها الآية الكريمة ، والمنكر : هو ما أنكرته الشريعة الإسلامية وحرمته ، ويدخل فيه الشرك بالله تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » ومن

يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

ويدخل فى المنكر أيضا عقوق الوالدين ، فهو أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين » ولذا جعل الإحسان إليهما فى المرتبة الثانية بعد التوحيد ، قال تعالى : « وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » .

ويدخل فى المنكر قتل النفس ، والفرار من الزحف على العدو ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، وأكل الربا ، والمقامرة وترك الصلاة والزكاة والصيام والحج عند القدرة عليه ، والغيبة والنميمة ، والحقد والحسد ، وأكل مال اليتيم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على عقاراتهم وأموالهم ، والنظرة الفاجرة إلى النساء ، والفحش فى القول ، والخيانة فى الأمانة وإفشاء أسرار الناس ، وغير ذلك من المحرمات التى أنكرها الشرع الحكيم ، ويحتاج تفصيلها ، وبيان الحكمة فى تحريمها إلى سجل كبير ، وحسبنا ما ذكرناه .

البغى

البغى هو التطاول بالظلم والعداوة على غيرك ، ويدخل فيه كل منكر تعدى أثره السيئ إلى سواك ، وقد نهى الله عنه فى هذه الآية الكريمة ، لما يسببه للناس من متاعب وأخطار ، وما يحدثه لهم من حرج ، وما يقض لهم من مضاجع ، فكم من بيوت خربت ، ونفوس أزهقت ، وأسر شُرِّدت ، وكرامة هتكت ، بسبب المظالم ذات الأشكال الصارخة ، والصور المخيفة المزعجة .

فما أعظمك يا رحمن يارحيم ، وما أكثر برك بعبادك ، وما أوسع رحمتك بهم ، حين أمرتهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ونهيتهم عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ليعيشوا فى سعادة وهناء ، فى جو مجتمع فاضل ملئ بالخير والأمن والسلام .

وما أعظم مسئولية الحكام والأمراء فى تحقيق هذه المبادئ ، وسيطرتها على سلوك الناس ، وما أكرمهم على الله إن عدلوا ، وما أشد عذابهم إن جاروا وظلموا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الناس إلى الله وأقربهم السلطان العادل ، وأبغضهم إلى الله وأبعدهم السلطان الجائر » وقال : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون فى أهليهم

. وما وُلّوا «وفى رواية «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة «بين يدى الرحمن ، بما أقسطوا فى الدنيا » والمقسطون هم العادلون .

وما أعظم حكمة الإمام علىٍّ إذ يقول : العالمُ حديقة سياجها الشريعة ، والشريعة سلطان يجب لها الطاعة ، والطاعة سياسة يقوم بها الملك ، والملك راع يعضده الجيش ، والجيش أعوان يكفلهم المال ، والمال رزق تجمعه الرعية ، والرعية سواد يستعبدهم العدل ، والعدل أساس العالم : اهـ.

وكان كسرى أنو شروان يلقب بالملك العادل ، وفيه يقول النبى صلى الله عليه وسلم: « ولدت فى زمن الملك العادل » وكان هذا الملك يقول : لا مُلْك إلا بالجند ، ولا جند إلا بالمال ، ولا مال إلا بالبلاد ، ولا بلاد إلا بالرعايا ، ولا رعايا إلا بالعدل ،فلزمتُ العدل واعتمدت عليه ،فأمنتِ الرعايا ،وعمرت البلاد .

يعظكم لعلكم تذكرون

ويختم الله هذه الآية فيقول : « يعظكم لعلكم تذكرون » ليؤكد وجوب الاعتبار بما جاء فيها ، وتنفيذ مبادئها الرشيدة ، لنسعد بتطبيقها فى دنيانا وأخرانا ، والله تعالى هو الموفق والمعين .

الدعاء والقدر

طاقات البشر وقواهم متفاوتة ، فإذا كان فى بعضهم اقتدار فى ناحية ، فإن فيه ضعفا فى نواح أخرى .

وهكذا الشأن فى جميع أفراد الإنسان ، بالاستقراء والتقصى ، فلهذا يدعو بعضهم بعضا ، ليعينه على استكمال النقص فيه ، ويقضى له من شئونه مالا يستطيع قضاءه ، ومن أجل ذلك نشأت الحرف المختلفة ، تبعا للطاقات والهوايات الكامنة فى النفس البشرية .

ولقد أحس الإنسان منذ نشأته ، أن طاقات البشر مجتمعة أو متفرقة تعجز فى أحيان كثيرة عن نجدته فيما هو مضطر إليه ، فلهذا اتجهت نفسه إلى قوة فوق قوى البشر ، يطلب منها العون والمساعدة .

ومن الناس من وفق إلى معرفة خالق الأكوان ، فدعاه ليجلب له نفعا أو يدفع عنه ضرا ، ومنهم من خانه التوفيق ، فدعا أربابا سواه ، لم تسعفه فى تحقيق مناه « أم منْ يجيب المضطر إذا دعاهُ ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله » .

ولما عرف عُبَّادُ الأَرباب الكاذبة هذه الحقيقة ، تركوا دعاءها عند الشدة ، منيبين إلى خالقها الواحد القهار ، لكنه تعالى إذا كشف الضر عنهم ، ومنحهم الرخاء والنعمة ، إذا هم به مشركون ، قال تعالى : « وإذا مسَّ الإنسان ضرٌّ دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمةً منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله [١] » .

ولما شرف الله العرب بدخولهم فى دين الإسلام ، وانتقلوا بذلك من عبادة الأَوثان إلى عبادة الواحد الديان ، لم يكونوا يعرفون من شئون الله تعالى ، إلا ما ينزل به القرآن العظيم ، أو يبينه لهم الرسول الكريم عن طريق الوحى .

وقد جال بأَذهان بعضهم – وهم قريبو عهد بالجاهلية – أن لله مكانا كما كان لآلهتهم ، فسأَل سائل منهم أَين ربنا ؟ وكان سؤاله هذا ليعرف من أَمر الله تعالى مالم يكن يعرف ، ويبنى عقيدته على ما يستيقن من الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الآية ٨ من سورة الزمر .

وكما سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا السؤال ، سأل مثله أعرابى فقال : أقريب ربنا فنناجيه[١] ، أم بعيد فنناديه[٢] .

فلهذا كان لابد من وضع حد لأمثال هذا التساؤل ، حتى يكون المسلمون على بينة من ربهم ، فنزل قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » ... الآية .

وبهذا الجواب الحاسم علموا أن الله تعالى ليس ببعيد عنهم ، بل هو قريب منهم بعلمه ، وإن لم يكن له مكان[٣] ، وأن المناجاة الخافتة لله ، والنداء بصوت جهورى يستويان عنده سبحانه .

والسؤال الخاشع لله أولى من الصوت الجهير ، قال تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين » .

ومعنى الآية : ادعوا ربكم سبحانه خاشعين له ، ومُسِرين فى الدعاء .

---

(١) أى فندعوه سرا . (٢) أى فندعوه جهرا .

(٣) لأنه لو كان فى مكان ، لما كان قريبا من كل ، فانه إذا قرب من شىء بعد عن شىء آخر ، والآية ناطقة بأنه قريب من كل شىء ، ولأنه تعالى الموجود قبل خلق المكان ، فوجب أن يكون القرب من جهة العلم ، لا من جهة المكان .

هل يرد الدعاء القدر

قد يقول قائل : كل شيء بقضاء الله وقدره ، فإن كان فى قضائه تعالى جلب نفع للعبد ، أو دفع ضر عنه ، حدث ما قضاه المولى ، سواء دعا العبد مولاه ، أم لم يدعه ، وإن لم يكن ذلك فى قضائه ، فلا يستطيع الدعاء أن يغير ، مما قضاه الله شيئا ، بل لا يستطيع أهل السماء والأرض أن يغيروه بأى بسبب كان ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

قلنا ردًّا على ذلك : إن الدعاء ينفع فيما جعله الله أزلا مترتِّباً على الدعاء ، وإن مثل الدعاء كمثل الدواء للمريض ، فإنه إن كان مقدورا عند الله تعالى الشفاءُ له بتناوله الدواء ، تناوله وحصل له الشفاءُ الذى رتَّبه الله عليه ، وان لم يكن مقدورا لم يحصل ، سواء أتناول الدواء ، أم كفَّ عن تناوله .

وكما أنه لايصح له ترك العلاج بالدواء ، اعتمادًا على أن ما كتبه له الله من صحة أو سقم سيحدث ، سواء أتناول الدواء أم تركه ، فكذلك أمْرُ الدعاء .

فعلىّ العبد أن يتعاطى الأسباب ، من دواءٍ أو دعاءٍ ، أما قضاء الله فيمضى حيث شاء ، حسب الحكمة الإلهية ، التى

يدور عليها هذا الكون ، ولعله بتعاطى الأسباب ، يحقق من قضاء الله ما رتبه عليها ، ونرجو أن يكون هذا التحليل قد بلغ من القراء شغاف القلوب .

ولمثل هذه الشبهة سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : « أرأيت أعمالنا . أهى شىء قد فرغ منه ، فقال بل هى شىء قد فرغ منه ، فقالوا ففيم العمل إذن ، فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

الدعاء مخ العبادة

على أن الدعاء له مدلولان (أحدهما) أن الداعى يعترف بدعائه أن ربه هو القادر على تحقيق ما دعاه إليه ، (وثانيهما) أنه يُقِرُّ بعجزه أمام الأحداث ، وأنه محتاج إلى العون من خالقه ، ليحقق له ما عجزت عنه قدرته وقدرة سواه ، وكلاهما مظهر عظيم من مظاهر العبودية والخضوع لخالق الأكوان ، فلذا كان مطلبا عظيما من مطالب الشريعة الإسلامية .

قال صلى الله عليه وسلم « الدعاءُ مُخُّ العبادة » .

وحسبك دليلا على فضل الدعاء ومنزلته عند الله تعالى ، أنه تعالى يغضب حين يتركه العبد إذا نزلت به محنة ، قال

تعالى « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » .

فعلى العبد أن يدعو ربه فى أمره كله ، فهو مظهر من مظاهر خضوعه له ، وإقراره بحاجته إليه ، واعترافه بقدرته على تحقيق مآربه ، وعليه أن يستسلم لقدر الله وحكمته فيما دعاه إليه ، سواء وافق مبتغاه ، أم لم يوافقه ، فهو أعلم بمصلحة كونه ، وأعلم بمصلحة عبده .

وينبغى له أن يجزم فى دعائه ولا يعلق على المشيئة ، قال صلى الله عليه وسلم : « لاينبغى لأحدكم أن يقول : اللهم اغفر لى إن شئت ولكن يجزم ويقول : اللهم اغفرلى » والحكمة فى الجزم الثقة بفضل الله ومزيد الأمل فى رحمته .

تفسير « ادعونى أستجب لكم »

قد يقول قائل : إن الله وعد بالاستجابة إلى دعاء عبده فى قوله تعالى : « ادعونى أستجب لكم » فكيف يتخلف وعد الله .

والجواب أن معنى الآية ، إمَّا أنه تعالى يقول عن دعاه : (لبيك) : وإمَّا أن يحقق له دعاءه ، فعلى الأول ليس فى الآية وعد بإجابة الدعاء ، وعلى الثانى تكون إجابة الدعاء مشروطة بمشيئة الله تعالى ، عملا

بقوله « فيكشف ماتدعون إليه إن شاء » فالمطلق فى كلام الله يحمل على المقيد ، فليس بلازم أن يتحقق الدعاء دائما ، لأن الله يعلم المصلحة لكونه وللداعى نفسه - ومنها أنه تعالى قد يدخر له الإجابة فى الآخرة ، أو أن يكشف عنه من السوء بقدر مادعا ، وفى ذلك يروى أبو سعيد الخدرى رضى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دعوة المسلم لاترد إلا لإحدى ثلاث - مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم - إما أن يعجل له فى الدنيا ، وإما أن يُدَّخر له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر مادعا » .

فعلى الداعى أن يعتقد أن مطلوبه إن لم يتحقق فى دنياه ، فسوف يجد عوضا عنه فى ماله أو ولده أو فى أخراه ، وعليه أن يصبر على بلواه ،

الحكمة فى عدم إجابة الدعاء

ليس من مصلحة الخلائق أن يجابوا إلى دعائهم كلما دعوا ، فإن لهم مطالب ليس من الحكمة تحقيقها ، ولو أجابهم إليها لفسدت الأرض وعم الخراب ، فما من إنسان إلا له عدو يرجو هلاكه ، ويدعو الله أن يهلكه ، فلو استجاب الله دعاء كل داع ، لهلك أهل الأرض جميعا

ومامن فقير إلا طالب للغنى ، فلو استجاب الله لكل فقير لاستغنى الناس جميعا ، ولم يستطع أحد أن يسخر سواه فى تحقيق مطالبه ، وبذلك تتعطل مصالحهم وتفسد أمورهم ، . وليس ذلك من الحكمة ، قال تعالى : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » .

وما من إنسان إلا كاره للموت ، محب للبقاء فى الأرض أحقابا ، فلو استجاب الله دعاء عباده بالشفاء من الأمراض والبقاء فى الأرض أحقابا ، لتكاثر الناس حتى ملئوا فجاج الأرض ، وضاقت عليهم بما رحبت ، ولم تكفهم أرزاقهم التى قدرها الله بقدر يناسب القدر اللائق بها من الخلق ، ولأكل الناس بعضهم بعضا ، لضيق الأرزاق عن كثرتهم .

ومامن أحد إلا راغب فى أن يكون سيدا على غيره ، فلوا استجاب الله الدعاء لكل طالب ، فكيف يمكن تحقيق سيد ومسود ، وملك ورعية ، والكل يريد أن يكون ملكا وغيره مملوكا له ، إن الاستجابة حينئذ تستوجب اجتماع النقيضين ، وهذا محال

والأمثلة فى ذلك كثيرة ، وكلها شاهدة بانه ليس من مصلحة الخلق أن يجاب دعاؤهم على الدوام ، بل يكون ذلك تابعا

لحكمة الله ومشيئته ، كما قال تعالى: « فيكشف ماتدعون إليه إن شاء ».

أمثلة من أدعية مستجابة

لما يئس نوح – عليه السلام – من إجابة قومه إلى توحيد الله وطاعته ، بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلاخمسين عاما ، ودعا ربه فقال: « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » فاستجاب الله دعاءه ، وأهلكهم بالطوفان وهم ظالمون .

وحين تعاظم البلاء على أيوب – عليه السلام – دعا ربه أن يكشف عنه ضره ، فاستجاب له وأمره أن يضرب الأرض برجله ، فضربها فنبع منها ماء بارد ، فأمره أن يغتسل ويشرب منه ، ففعل فشفاه الله .

وفى أول الدعوة الإسلامية بمكة ، آذى مشركوها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثيرا ، وفى جملة ذلك أنهم عمدوا إلى فرث جزور [1] فى كرشة ، فوضعوه

(١) الفرث السرجين في الكرش .

على رأسه وهو ساجد فى المسجد الحرام ، فجاءت ابنته فاطمة الزهراء ،فنحته عنه ،فلما انتهى من صلاته دعا على من تآمروا عليه فقال : « اللهم عليك الملأمن قريش » وسمى أفرادا منهم ، قال ابن مسعود : فرأيتهم صرعى فى قليب بدر .

ولما اشتد أذاهم قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فأصابهم القحط حتى أكلوا الكلاب والجيف ودعا مرة فقال : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب » كما رواه الحاكم وصححه ، وأخرجه البيهقى وغيره بلفظ « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، بأبى جهل أو بعمر ابن الخطاب » وكان عمر فى ذلك الوقت مشركا ، فحصلت له بركة دعوته صلى الله عليه وسلم ، فآمن وأعز الله به الإسلام .

ولما هاجر – صلى الله عليه وسلم – أدركه سراقة بن مالك الخثعمى فى الطريق ليقتله أو يمسك به لقريش ، حتى يقبض الدية التى جعلتها لذلك ، فلما دنا منه صلى الله عليه وسلم ، دعا الله سبحانه فقال : « اللهم اصرعه فصرعه فرسه » كما جاء فى صحيح البخارى

وقد ساخت قوائم فرسه فى الأرض مع أنها جلدة ، ثم استنجد بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وتاب وكان يخبر طلابه بأنه لم يره .

ولما نفد الماء من المسلمين فى غزوة تبوك ، وكانوا فى الصحراء والجو شديد الحرارة ، جعلوا يذبحون بعض الإبل ، ويعتصرون فرشها ، ليبلوا بعصارته حلوقهم من شدة الظمأ ، فقال أبو بكر : يارسول الله إن الله عودك فى الدعاء خيرا فادع الله لنا ، قال : « أتحبون ذلك » قال : نعم ، فدعا الله رافعا يديه إليه سبحانه ، فلم يرجعهما حتى كان السحاب قد أمطرهم ، ولم يتجاوزه الماء عسكرهم ، فشربوا وملئوا مامعهم من الروايا [1] ، رواه ابن جرير والحاكم وصححه وغيرهما ، وقد رويناه بالمعنى .

وعن أنس قال : أصابت الناس سنة [2] على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم « فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قام أعرابى ، فقال : يارسول الله : هلك المال وجاع العيال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه

(١) جمع راوية ، وهى وعاء الماء اللى تحمله الإبل ، ويشبه القربة .
(٢) السنة الجدب والقحط .

وما نرى فى السماء قَزَعة[1] ، فو الذى نفسى بيده ، ماوضعهما حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره ، حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ،فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد ، حتى يوم الجمعة الأخرى » . . إلى آخر الحديث .

ولهذا شرعت صلاة الاستسقاء والدعاء بإنزال المطر عند الجدب ، ومازالت تلك سنة المسلمين ، وكثيرا ما يحقق الله دعاءهم ويسعفهم بالمطر .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد أن الناس قحطوا على عهد معاوية ، فخرج يستسقى بهم ،فلما وصلوا إلى المصلى قال معاوية لأبى مسلم الخولانى : قد نرى ما حل بالناس ، فادع الله تعالى ، فكشف البرنس عن رأسه ، ثم رفع يديه ، ثم قال : اللهم إنا منك نستمطر ، وقد جئت إليك بذنوبى فلا تخيبنى ، فما انصرفوا حتى سقوا : قال أبو مسلم : اللهم إن معاوية أقامنى مقام سُمْعَة ، فإن كان عندك لى خير فاقبضنى إليك ، وكان ذلك يوم

---

(١) أى سحابة .

الخميس ، فمات أبو مسلم يوم الخميس المقبل ، انتهى مرويا بالمعنى لطوله.

أدعية مأثورة

من الأدعية المأثورة دعاء علمه النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة وأوصاها به فقال : عليك بالجوامع الكوامل : قولى : اللهم إنى أسألك من الخير كله ، عاجله وآجله ما علمت منه ومالم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله ، عاجله وآجله ، ماعلمت منه وما لم أعلم ، أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأستعيذ بك مما استعاذ منه عبدك ورسولك صلى الله عليه وسلم ، وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين.

ومنه ما علمه فاطمة رضى الله عنها فقال : يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به ، أن تقولى : ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث ، لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله .

ومن استعاذاته صلى الله عليه وسلم «اللهم إنى أعوذ بك
ن طَبع يهدى إلى طَمع ، ومن طَمَع فى غير مَطْمع » .

وقوله : «اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع [1] ونفس لا تشبع ، وأعوذ من الجوع فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنها بئس البطانة ، ومن الكسل والبخل والجبن والهرم ، ومن أن أردَّ إلى أرذل العمر ، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، اللهم إنا نسألك قلوبا أواهة مخبتة مهيبة فى سبيلك ، اللهم إنى أسألك عزائم مغفرتك ، وموجبات رحمتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بِرّ ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

وحسبنا ماذكرنا ، والله تعالى هو الموفق .

الذكر بغير الأسماء الحسنى لا يجوز

بعث إلينا أحد الفضلاء ، رسالة يسأل فيها عن (كهيعص) التى تقع فى أول سورة (مريم) : هل معناها بالسريانية (كونى

---

(١) أى لا يجاب .

بونى كرمدى كرمدى بصير) وبالعربية كافينى ، وهل ترجمة الاسم الأعظم بالسريانية (هيا أيا شراهيا يا حى يا قيوم) ؟ . وهل يصح ذكر الله تعالى بهذه الأسماء ؟ فقد رأى من يذكر بها من كبار الموظفين ، وقرأ جواز الذكر بها فى بعض الكتب ، وقال صاحب الرسالة : إنه يبحث عن الكتب الصحيحة التى تبحث فى هذا الموضوع ، وعن درجة مثل هذه التأويلات من الصحة ، وإجابة عن هذه الأسئلة نقول : وبالله التوفيق ،

يقول الله تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » .

وأسماء الله الحسنى هى التى وردت فى كتاب الله وسنة رسوله ، وهى تسعة وتسعون اسما ، كما جاء فى صحاح الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدًا ، من أحصاها[١] دخل الجنة » أى من ذكر الله بها كلها فاهما معناها ، خاشعاً فى أدائها ، دخل الجنة بفضل الله وكرمه ، حسب وعده الكريم ،

---

(١) جاء فى القاموس : أحصى الشىء عده أو حفظه أو عقله .

وقد دل كل اسم فيها على الذات متصفة بصفة معينة من صفات الله الكريمة ، فالواحد دل على الذات الأقدس ، ملاحظاً فيها صفة الوحدانية ، والعليم دل على ذات الله ملاحظاً فيها صفة العلم ، والقدير دلَّ على ذات الله ملاحظاً فيها صفة القدرة ، وهكذا جميع الأسماء الكريمة فالذات واحدة ، والأسماء متعددة ، حسب تعدد صفاته تعالى ، وتعدد الصفات لذات واحدة أمر معروف ، فكل واحد منا له صفات عديدة ، مع أن ذاته واحدة ولكن صفات الله تعالى قديمة قدمَ ذاته ، باقية بقاء ذاته ، أما صفاتنا فحادثة ، وفانية بفنائنا .

وقد يدل الاسم على الذات من غير ملاحظة وصف ، وذلك خاص بلفظ الجلالة (الله) فإنه علم على الذات الأقدس ، والأعلام لا تلاحظ فيها الصفات ، وذلك غير وصف (الإله) بمعنى المعبود بحق .

وقد أمرنا الله تعالى فى هذه الآية أن نذكره بأسمائه الحسنى ، التى عرفناها من كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعنى دعائه بها أن نناديه بها ذاكرين ، أو ملتمسين منه ما نحتاجه من المطالب الأخروية أو الدنيوية ، مثل يا الله اغفر لى ، يارزاق ارزقنى رزقاً حلالا . ونحو ذلك .

أما فواتح السور ، مثل (كهيعص) ، (ألم) ، (يس) ، (طه) ، (ص) ، (ق) ونحو ذلك ، فإنها لم يرد فيها نص من كتاب الله أو سنة رسوله ، يدل على أنها من أسمائه تعالى ، فلا يصح أن يذكر الله بشيء منها ، لأن تسمية المولى جل شأنه ليست من حقنا ، بل من حق الله سبحانه وتعالى .

وأما ما ذكره السائل من أن (كهيعص) معناها بالسريانية ما ذكره نقلا عن بعض الذاكرين به ، وأن اسم الله الأعظم ينطق بالسريانية هكذا (هيا أيا شراهيا) فذلك كله لادليل عليه ، فمن أين جاء القائلون بما قالوه فى ذلك ، ولا سند له من كتاب الله وسنة رسوله .

ثم إن هؤلاء الذين زعموا هذا الزعم لايعرفون حرفاً واحدا من اللغة السريانية ، فضلا عن الكلمات والجمل ، فكيف سمحوا لأنفسهم أن يقولوا ما يجهلون .

وعلى فرض أن معناها بالسريانية ذلك — وهو ما لم يقم عليه دليل — فكيف يجوز الذكر بها ، والله تعالى عرفنا أسماءه الحسنى ، وطلب إلينا أن ندعوه بها .

إن الذكر بها يا ولدى مجازفة محفوفة بالخطر ، فإنه تسمية لله تعالى بغير علم ، والله تعالى يقول : « ولا تقف ما ليس

لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » : الإسراء .

واعلم أن (كهيعص) وغيرها من فواتح السور ، مما استأثر الله بعلمه — كما قاله علماءُ السلف — فاطلب السلامة ياولدى فى هذا الأمر ، ولا تقف فيه ما ليس لك ولا لغيرك به علم ، وبخاصة أنه يتصل بالمولى سبحانه وتعالى .

على أن بعض علماء التفسير قالوا فى شأن هذه الفواتح : إنها أسماءلحروف هجائية ، جىءَ بها للتنبيه إلى سماع ما بعدها من الآيات ، فإن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن ، بدئت بها السور المكية لتسترعى انتباههم إلى ما يتلى بعدها ، فإن ابتداء الكلام بها خارج عن مألوفهم ، وكل شىء يخالف المألوف يسترعى الانتباه ، كما هو واضح من طبائع البشر ، وقيل : هى أسماءٌ للسور ، وقيل :غير ذلك ، فإن صح ما يقولون ، فكيف نجعلها أسماء الله تعالى نذكره بها .

إننى أخشى أن يكون ذكر الله بهذه الفواتح ، إلحادا فى أسمائه تعالى ، والله تعالى يقول : « وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » .

والإلحاد فى أسمائه ، هو الميل بها عما شرعه الله ، ويكون بواحد من ثلاثة (أحدهما) إطلاق أسمائه على غيره تعالى ، كإطلاق اللات والعزى على وثنين من أوثان المشركين ، وقد اشتقوا اللات من (الله) والعزى من (العزيز) .

(ثانيها) الزيادة فى أسمائه الحسنى ، عما ورد فى كتاب لله وسنة رسوله ، كما يفعل بعض الجهلاء الذين يخترعون أدعية أو ذكرا يسمون فيه الله تعالى بغير أسمائه المشروعة ، وذكر الله بالسريانية أو بكهيعص أو غيرها مما لم يشرعه الله ورسوله ، من هذا القبيل تماماً ، فكيف نسمح لأنفسنا بهذا اللون من الإلحاد فى أسمائه الشريفة ؟.

(ثالثها) النقص فى أسمائه تعالى ، بحذف ما علم أنه منها بالكتاب أو السنة .

قال ابن العربى محذرا من الإلحاد فى أسمائه بأى طريق من هذه الطرق الثلاث (فحذار منها ، ولا يَدْعُوَنَّ أحدكم إلَّا بما فى كتاب الله والكتب الخمسة ، وهى البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى ، فهذه الكتب التى يدور الإسلام

عليها ، وقد دخل فيها الموطأ[1] الذى هو أصل التصانيف وذروا ما سواها ،ولا يقولن أحدكم : أختار دعاء كذا كذا ، فإن الله قد اختار له ، وأرسل بذلك إلى الخلق ، رسولَه صلى الله عليه وسلم .

انتهى كلام ابن العربى ، ونرجو أن يكون فيما بيناه راحة لنفسك ، وطمأنينة لقلبك ، فإنه هو الذى يرضى الله جل عُلاه .

واعلم يا بنى أن أعظم ذكر لله هو أن تذكره تعالى فى أمرك كله ، وذلك بأن تقيس أقوالك ، وأفعالك على الشرع الشريف ، وتقول أو تفعل منها ما يرضى الله تبارك وتعالى ، راجياً ثوابه ، وتترك منها ما يغضبه ، خائفا من عقابه ، وذلك هو الإحسان الذى أجاب به الرسول صلى الله عليه وسلم ـ جبريل عليه السلام ردًّا على سؤاله عنه ، إذ قال له : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

---

(١) الموطأ كتاب جمع فيه الإمام مالك ماصح عنده من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإذا ذكرت الله تعالى بأسمائه الحسنى ، فتذكر جلاله وكبرياءه ، وعظمته ونعمته ، وتذكر ذلك كله فى نفسك وأنت تذكره ، وتذكر أيضا معانى الأسماء الحسنى التى تذكر بها ، مع الخشية والخشوع .

وفقنا الله تعالى وإياك لما يحبه ويرضاه ، وأذاقنا جميعا لذة حبه وقربه ، وحقق لنا أكرم المنى فى مرضاته ورعاك وسدد خطاك هذه يابنى ذكرى « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

تعدد الزوجات والطلاق فى الإسلام

لم يكن زواج الرجل العربى قبل الإسلام مقيدا بعدد معين ، فقد كان يتزوج من النساء ما يشاء ، ويعتبر زواجه وجمعه أى عدد شاء منهن حدثا عديا ، لا يثير عجبا ولا يستتبع تثريبا ، لا من عليه القوم ولا من سفلتهم ، ولما أنزل الله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » للحيلولة دون المظالم والمآثم التى كانت تابعة لحرية الزواج ، أمر النبى — صلى الله عليه وسلم — من كان عنده أكثر من أربع نساء ،

أن يمسك منهن أربعا ، يختارهن كما يشاء ، ويفارق سواهن ، ليتزوجهُنَّ من يقوم بأمرهن ، ويحسن إليهن .

وكان من هؤلاء رجل اسمه غيلان ، أسلم وعنده عشر زوجات ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « أمسك أربعا وفارق سائرهن » .

ومنهم قيس بن الحارث الأسدى ، أسلم وعنده ثمان زوجات ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : « اختر منهن أربعا وخل سائرهن » أى وفارق باقيهن ، ولهذا التشريع حكم عديدة :

(أولها) أن الرجل لا يستطيع أن يعول — غالبا — بين أكثر من أربع من النساء وذريتهن ، فحتى لا يجوع النساء وأولادهن ، ويترددوا فى مزالق الفاقة ، حرم الله جمع أكثر من هذا العدد فى عصمة رجل واحد .

(ثانيها) أنه لا يستطيع أن يعف أكثر منهن ، فحماية للزوجات من الجنوح إلى الرذيلة وشطط الهوى والجوع الجنسى ، أوجب الله الاقتصار على أربع لا يتجاوزهن .

(ثالثها) أن إباحة التعدد إلى أربع كانت له آثار عظيمة فى زيادة عدد المسلمين وكثرتهم أمام أعدائهم على امتداد العصور ، فخافوهم وَفُتَّ فى أعضادهم ، فانطلق الإسلام يشق طريقه فى المشارق والمغارب ، لا تخشى أولئك المتربصين .

(رابعها) أن الزوجين قد يكونان متحابين ، ولكن الزوجة لاتنجب أولادا ، وكلاهما يريد البقاء مع الآخر ، فحفاظاً على دوام عشرتهما ، وطلبا لإنجاب الأولاد ، أبيح للزوج أن يجمع معها غيرها . وقد وصل إلى علمى أن امرأة أصيلة من هؤلاء العاقرات ، خطبت لزوجها برضاها فتاة ، فلما تزوجها أنجبت له ،وكانت الأولى حانية على الثانية ، عطوفا على أولادها .

(خامسها) أن الزوجة قد يكون لها أولاد ، ولكنها سيئة العشرة مع زوجها ، فحذرا من طلاقها ، وتعرضها مع أولادها للمتاعب الكثيرة ، أبيح له أن يتزوج عليها سواها ، ليستريح من سوء عشرتها معه ، ولتبقى مع أولادها لرعاية شئونهم ، على أن يعطيها حقها من القسم والنفقة .

(سادسها) أن الحرب يخوض غمارها الرجال فيموت منهم كثيرون فى الحروب ، وتتأيم بعدهم نساؤهم ، وتتيتم بناتهم ، ويفقدن من يعولهن ، كما أن عدد النساء فى معظم الأمم أكثر من عدد الرجال ، فيتعرض بسبب ذلك لأخطاء العرض ، وأخطار المسغبة، فلهذا عالج الإسلام كثرتهن وأخطارها بإجازة التعدد ، على النحو الذى جاء فى الآية الشريفة .

(سابعها) أن إلزام الزوج بزوجة واحدة ، مهما كانت صفاتها وأحوالها ، يؤدى إلى انتشار البِغَاء السرى والعلنى ، واتخاذ الخليلات وإنجاب الأولاد غير الشرعيين ، الذين لاينتسبون إلى والد شرعى ،

وتلك ظاهرة لاتحتاج إلى دليل ، فإن الأمم التى تدين بالزوجة الواحدة ، تنتشر فيها الدعارة السرية والعلنية ، بشتى ألوانها المخزية ، وبعض الخاطئات يحملن ويلدن فى دور الولادة العامة ، ومنهن من يلدن فى عيادات طبية خاصة ، ومنهن من يجهضن أحمالهن بشتى الوسائل ، وكثيرات منهن يمارسن رذيلة السفاح ، ويمنعهن الحمل صناعيا أو لأنهن عاقرات .

ولقد زادت نسبة الانحراف فى العصر ، وولادة الأولاد غير الشرعيين ، وانتشرت هذه الظاهرة ، فى فتيات المدارس والجامعات والمصانع وغيرها ، ويدل لذلك أن بعض المعاهد المعنية بالإحصاء فى إحدى الدول الأجنبية التى توجب شريعتها الزوجة الواحدة ، أحصت الأولاد الشرعيين وسواهم سنة ١٩٦٨م ، فوجدت نسبة أولاد السفاح إلى مجموع المواليد السدس .

وهذا الإحصاء لا يمثل نسبة السفاح على وجه الحقيقة ، فإنه يعتمد على اللائى ولدن فى المشافى العامة ، من الفتيات اللائى لم يسبق لهن زواج ، والنساء المتوفى عنهن أزواجهن ، والمطلقات مدنيا أو بسبب ثبوت جريمة الزنى عليهن .

وقد أغفل من حسابه اللائى ولدن بالعيادات الخاصة واللائى أجهضن ، والنساء المتزوجات المنحرفات ، الحاملات من غير أزواجهن ، وغير المتزوجات اللائى يستعملن العقار المانع من الحمل ، ويمارسن هذه الرذيلة

وما أكثر السفاح الذى لم يستعقب أولادا بسبب استعمال هذا العقار .

فلو استطاعت الجهة التى قامت بهذا الإحصاء ، أن تتعرف هذه الحالات لظهرت نسبة الرذيلة بشكل مروع خطير قد يصل إلى ٩٠٪

ولا غرابة فى ذلك ، فإن قصر الزوج على زوجة واحدة ، لايحلّ له أن يطلقها ولا أن يتزوج معها غيرها ، من أهم الأسباب المتبعة لتلك الجريمة وآثارها ، فقد تكون المرأة غير جميلة فلا ترضى زوجها ، أو جميلة ولكنها شاذة الطبع مشاكسة ، أو متساهلة فى عرضها ، وهو لايستطيع أن يثبت انحرافها حتى يطلقها ، أو غير ذلك من الأسباب ، فيضطر الزوج اضطرارا إلى أن يطلب متعته فى سواها بطريق غير شرعى ، ليتخذ من الخليلات ماشاء له هواه .

وأيهما أجدى على الخلق وأنفع للمجتمع ، أن يباح تعدد الزوجات بطريق شرعى يستتبع أولادا شرعيين أم أن يقتصر على زوجة واحدة لا يتعداها ، ولايستطيع

طلاقها إن وجد بها مايمنع دوام العشرة الوادعة الراضية ، ثم يتخذ من الخليلات ماشاء ، وقد يتجاوزن أربعا ، ثم ينسل منهن أولادا غير شرعيين ، لاشك عند المنصف فى أن الأول هو الأجدى على الأخلاق ، والأنفع للمجتمع .

إننا نسمع من آن لآخر دعوات صريحة فى نواح عديدة فى أوروبا وأمريكا ، تدعو إلى تعدد الزوجات حتى من النساء أنفسهن ، وهذا وحده يكفى برهانا على أن منع التعدد لا يتفق مع الواقع البشرى .

متى يباح تعدد الزوجات

إن شريعة الإسلام ناطت تعدد الزوجات ، بعدم الخوف من ظلمهن ، والجور فى حقوقهن المشروعة ، من إعفائهن ورزقهن وكسوتهن وإسكانهن ، فإن خاف الرجال الجور وعدم العدل ، وجب اقتصارهم على زوجة واحدة ، وحرم تزوج كل منهم أكثر منها ، قال تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، ثم قال : « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى ذلك الاقتصار على الزوجة

الواحدة ، أقرب من أن لا تجوروا ، أى أن زواج المرأة الواحدة يبعدكم عن الجور فى حقهن .

وإنما حرم التعدد حينئذ ، لأن الجور حرام ، فما يؤدى إليه يكون حراما ، وهذا النص قد أوجب ذلك ديانة بين العبد وربه ، ولم يستوجبه قضاء على الناس ، إلا إذا وقع ظلم بالفعل ، لأن القاضى لا يعلم الغيب ، ولا يستطيع التنبؤ بما سيقع من أمور ، وإنما يفصل فيما وقع بالفعل من ظلم الزوج لزوجاته .

فقوله تعالى : « فإن خفتم أن لاتعدلوا فواحدة » إنما هو خطاب للمكلفين فى شأن لا يعرف إلا من جهتهم ، يرجعون فيه إلى نياتهم وعزائمهم ، وليس له من الأمارات الصادقة المطّردة أو الغالبة ، مايجعل معرفته وتقديره داخلين تحت سلطان القاضى ، حتى يترتب على تلك الأمارات ، تشريع يمنع تعدد الزوجات أو تقييده (١) .

ولا يقال إن القرآن اشترط العدل بين الزوجات ، وحرم على من يخاف الظلم أن يتزوج على امرأته ،

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة للمرحوم الشيخ محمود شلتوت ص ١٩٦

فوجب أن نبحث عن طريق تشريع يمنع التعدد استنادًا إلى هذا النص .

ذلك أن الشريعة الإسلامية لها ناحيتان ، ناحية قضائية ، وناحية دينية ، والعقد على امرأة مع خوف الظلم بين النساء عقد صحيح من الناحية القضائية ، ولكنه من الناحية الدينية يحوطه الإثم من كل جوانبه ، فالتحريم هنا أمر يعاقب الله على مخالفته ، وهو العليم بالسرائر ، أما القضاء فلا سبيل له إلا على ما ظهر من الأمور (١) .

فالقاضى يحكم على ماوقع من الأمور ، أما حكمه على ماسيقع ، فلا سبيل له إليه ، فقد يظن فى شخص أنه سوف لا يعدل بين زوجاته ، ولكن هذا الظن قد لا يتحقق ، لأن القلوب بيد الله ، فقد يحدث له من توجيه الله ومما يسوقه إليه من الدواعى مايحمله على العدل ، فيخلف به الظنون ، أما الاستعانة على ذلك بالشهود ، فإنها لاتجدى قبل الزواج وحصول

(١) قضية تعدد الزوجات الدكتور ناصر العطار ص ١٨٩ — ١٩٠

الجور ، فإنه لا شهادة إلا على واقع ، أما أن يقال إن الشاهد يستطيع الشهادة على أن مثل هذا الزوج سوف يجور لأسباب هى كيت وكيت ، فذلك القول مردود ، لأن فى شهادة الزور متسعا لتحقيق المراد ، على أن الله مخلف للظنون ، فكم من شخص تظن فيه الشر وهو رجل خير ، أو سيتحول إلى رجل خير .

قولوا للمرأة لا تكونى ضرة

أيها الصائحون المنادون بمنع ظلم المرأة بتشريع يمنع تعدد الزوجات ، ألستم تعلمون أن للمرأة كامل الحرية فى أن تقبل الزواج من رجل له زوجة أو أكثر أو ترفضه ؟ فلماذا تعترضون على تشريع تعدد الزوجات وقد أنزله الله لمصلحة المجتمع فى كثير من الأحوال ، ولا تلومون المرأة على قبولها الزواج من رجل متزوج ؟ قولوا لها أو لذويها ، لا تقبلوا أن تكون فتاتكم زوجة لرجل متزوج ، بدلا من محاولة إبطالكم شريعة الله ، التى نجحت فى علاج آفات كثيرة فى المجتمع ، وكانت سببا فى كثرة عدد المسلمين أمام أعدائهم ، وَأَبْقَتْ على كثير من الزوجات المشاكسات بين أولادهن بدلا من تشريدهم بطلاق أمهم .

لقد تزوج المسلمون الأولون عديدا من الزوجات معاً فى حدود الأربع ، ولم تنشأ مشكلة فى المجتمع من أجل ذلك ، فهل أنتم أعلم بمصلحة المجتمع من الله أو من السلف الصالح ؟ .

قضية من الطرائف

من أعجب القضايا قضية بُنِىَ الحكمُ فيها على أقصى عدد للجمع بين الزوجات ، وخلاصة هذه القضية أن امرأة جاءت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقالت : يا أمير المؤمنين . زوجى يصوم النهار ويقوم الليل ، فقال لها : نعم الزوج زوجك ، فجعلت تكرر عليه القول ، ويكرر عليها الجواب ، فقال كعب الأسدى : يا أمير المؤمنين ، هذه زوجة تشكو زوجها فى مباعدته إياها عن فراشه ، فقال له عمر : كما فهمت كلامها فاقض بينهما ، فأحضر زوجها ، وقال له : إن امرأتك هذه تشكوك ، فقال أفى طعام أم فى شراب ؟ قال لا ، قالت المرأة :

يأيها القاضى الحكيم رشَدُه . ألهى خليلى عن فراشِى مسجدُه

زهّده فى مضجعى تعبّده .'. فاقض القضا كعبُ ولاتردُّه
نهارُه وليلُه مايرقده .'. فلستُ فى أمر النساء أحمده

فقال زوجها :

زهدنى فى فرشها وفى الحَجَل(١) .'. أنى امرؤ أذهلنى ماقد نزل
فى سورة النحل وفى السبع الطُّوَل .'. وفى كتاب الله تخويف جلل

فقال كعب :

إنّ لها حَقا عليك يا رجل .'. نصيبُها فى أربع لمن عقل
فأعطها ذاك ودع عنك العِلَل

ثم قال : إن الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام بلياليها تعبُد فيها ربك ، ولها ليلة بيومها ، فقال عمر : والله لا أدرى من أى أمريك أعجب ، أمِنْ فهمك أمرهما ، أم من حكمك بينهما ، اذهب فقد وليتك قضاء البصرة .

---

(١) الحجل جمع حجلة ،وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس

(٢) السبع الطول : هى السور السبع الطويله فى أول القرآن ، والتخويف الذى جاء فيها وفى سورة النحل وفى سائر القرآن ، ماجاء فيها من آيات الوعيد على مخالفة أوامر الله ونواهيه .

الطلاق وحكمته

أنزل الله تعالى فى الطلاق عدة آيات ، لتشريع أحكامه المختلفة ، ومنها قوله تعالى : «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وفى هذه الآية شرع الله الطلاق ثلاث مرات ، اثنتان منهما تحل مراجعته الزوجة المطلقة بعد كليتيهما وقبل انقضاء عدتها ، والثالثة هى التى عبر عنها بقوله جل ثناؤه : « أو تسريح بإحسان » أخرج أبو داود وجماعة عن أبى رُزَين الأسدى أن رجلا قال : « يا رسول الله إنى أسمع الله تعالى يقول : « الطلاق مرتان » فأين الثالثة ؟ فقال : « التسريح بإحسان هو الثالثة » .

وقد كان الطلاق والمراجعة فى الإسلام قبل نزول هذه الآية بدون قيد ولا عدد ، حيث كان العرف فى الجاهلية ، فأنزلها الله تعالى للقضاء على مساوىء هذا الإطلاق ، فقد كان يسىء إلى النساء إساءة شديدة أخرج مالك والشافعى والترمذى وغيرهم ، عن عروة قال : « كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضى عدتها ، كان له ذلك وإن طلقها ألف

مرة ، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها ، حتى إذا ماشارفت انقضاء عدتها ، ارتجعها ثم طلقها ، ثم قال : والله لا أويك إلىّ ولا تَخْلِينَ(١)أبدا ، فأنزل الله تعالى الآية » .

بهذا التحديد لعدد مرات الطلاق ، قَضى على استغلال الزوج القاسى لإطلاقه ، وإطلاق الرجعة ، فى الإضرار بالزوجة وتعذيبها ، بتكرار الطلاق والمراجعة كما يشاء ، فلا هو يتركها حتى تنقضى عدتها فتتزوج غيره ، ولا هو يمسكها بالمعروف .

وحكمة مشروعية الطلاق أن الزوجين قد يظهر لهما بعد الزواج أنهما غير مؤتلفين فى الطباع والأخلاق ، وأن دوام العشرة الطيبة بينهما متعذر ، أو قد يطرأ على عشرتهما الطيبة من الأسباب المالية أوالخلقية أو غيرها ، ما يعكر صفوها ، ويجعل حلوها مرا ، ونعيمها شقاء ، ويتعذر علاج الجراح التى سببتها

(١) أى ولاتفرغين من الزوجية والارتباط بى ، حتى لا تتزوجى غيرى ، وتبقين معى معلقة ، يقال : خلا المكان وأخلى واستخلى إذا فرغ .

تلك الأحداث ، أو أن تكون الزوجة عاقرا والزوج ليس كذلك ، وهو يريد الذرية ولا يستطيع أن يجمع بين امرأتين ، فلهذا كله شرع الله الطلاق ، حتى تستقيم لكليهما حياته ، إن أصرا أو أحدهما على الانفصال ، وجعل للمطلق حق الرجعة ، رغبة فى أن يعود إلى المسىء منهما رشده ، فيؤنبه ضميره على ما اقترف ، ويهيئه إلى رجعة يسود فيها المعروف ، وتزول فيها دواعى المخاصمة والانفعال .

ومن رحمة الله تعالى ،أنه شرع المصالحة بين الزوجين فطلب من كل منهما أن يبعث حكما من أهله بقوله فى سورة النساء: « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . . » الآية ٣٥ . . ودعاهما الله إلى المصالحة ، وبين أن الصلح خير فى قوله تعالى فى سورة النساء: « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح ،وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا — ١٢٨ » .

فإن لم يتم الصلح وحدث الطلاق ، فقد جعل الله للمطلقة عدة تكون فيها مرتبطة بالزوج ، مدتها ثلاثة قروء [1] ، وهى مدة كافية لمراجعة النفس وتهذيبها بعد درس الطلاق القاسى على كليهما ، وشرع الرجعة فى أثنائها ، وجعل الطلاق الذى تحل الرجعة فى عدته مرتين ، تكرارا للتأديب إن عادت المساءةُ مرة أخرى ، وشرع الرجعة مرتين رحمة بالزوجين ، ورغبة فى دوام الترابط بينهما .

فإن تجددت المساءة بعدهما ، ولم يمكن رأب الصدع وجبر الكسر ، وطلقها الزوج لثالث مرة فلايحل لهما أن يتراجعا ، ولا أن يعقد عليها ، لافى العدة ولا بعدها ، تأديبا للمسىء منهما ، ولتعذر حسن العشرة بينهما .

فإن تزوجت غيره بعد انقضاء عدة الطلاق الثالث ، ثم طلقها الزوج الثانى باختياره بعد دخوله بها ، جاز للأول أن يتزوجها بعد انقضاء عدتها من

(١) أى ثلاث حيضات عند بعض الفقهاء ، وثلاثة أطهار عند بعض آخر .

الثانى ، عملا بقوله تعالى : «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ويعود إليه الحق كاملا فى عدد الطلاق بالنسبة إليها ، كما لو كانت زوجة جديدة .

وإنما ساغت له العودة إليها بعد تعذر العشرة بينهما من قبل ، لأن فيما حدث من أدب الطلاق الثلاث ، والتزوج بزوج آخر ، مايكفى لتهذيب المسىء ، ورد صوابه إليه .

الحكمة فى جعل الطلاق من حق الزوج

جعل الله الطلاق من حق الزوج لحكم عديدة ، منها أن الزوج هو الذى دفع الصداق ، فلا يصح عقلا أن ينزع منه حق الطلاق ، وتعطاه الزوجة التى لم تدفع له شيئا تخاف ضياعه ، حتى لاتستعمله سلاحا ضده عند غضبها منه ، فتضيع عليه مابذله فى سبيلها ، وقد يكون مبلغا كبيرا أنفق فيه الجهد حتى دبره ، كما أنها بذلك تحمله على تدبير غيره

ليتزوج سواها ، وقد يعجز عن ذلك ، فيتضاعف ضرره .

أضف إلى ذلك أنها إذا طلقته استفادت نفقة العدة وحضانة الأولاد ، وخسر هو كل شيء ، فيكون وضع هذا السلاح فى يدها شديد الخطورة عليه وعلى أولاده .

ومنها أن إعطاء الزوج حق الطلاق يجعله يتأنى ويصبر قدر الطاقة على مرارة العشرة ، فلا يسارع إلى الطلاق ، حذرا من ضياع ماله الذى أنفقه فى صداقها ، وهداياه التى قدمها إليها ، وضياع زوجته التى يأمل فى صلاح حالها ، وضياع أولاده من ولايته ، وحرمانهم من تربيته ، وتكبيده نفقة العدة لأمهم ، وأجرة حضانتها لهم ، وعودته إلى تجربة الزواج من جديد ، وقد تكون مخفقة ، كما أنه لايدرى كيف يكون حالها مع أولاده من المطلقة إذا ضمهم إليه بعد مدة الحضانة ، والغالب أنها لاتحنو عليهم ، بل تكون قاسية فى معاملتهم ،

ثم إن المطلقة إن تزوجت فى زمن حضانة الأطفال ، فمن يقوم بحضانتهم أهى أمه إن كانت له أم ، أم أمها إن كانت لها أم ، إن الزوج يعرف أنه لو طلقها وتزوجت وله منها أولاد ، سيحصل نزاع قضائى بينه وبينها على من يقوم بحضانتهم ، أهى أمه أم أمها ، وسيصرف فى سبيل الفصل قضائيا فى ذلك مصروفات ذات قيمة قد لايحتملها .

وإن لم يكن لكل منهما أم وتزوجت المطلقة ، فمن يقوم بحضانة الأولاد ، كل هذه المشكلات وغيرها ستمر بفكر الزوج قبل أن يقدم على الطلاق ، فلهذا يسعى جاهدا فى سبيل دوام العشرة معها ، وإزالة أسباب الخلاف ، حتى لايتحمل تلك التبعات التى لايحتملها ، ويقع فى تلك المشكلات التى لايستطيع حلها ، أما جعله فى يدها ، فإنه لايوقعها فى تلك المشكلات كلها ، بل ربما جرّ عليها الكثير من الفوائد إلى جانب خسارة الزوج ماله وأولاده .

فلذا كان من الحكمة جعله فى يد الزوج دون الزوجة ، وهذا هو الذى شرعه الله .

لماذا لم يجب الطلاق أمام القاضى

لم يوجب الشارع الحكيم أن يكون الطلاق أمام القاضى ، لأنه سوف يسأله عن دواعيه وأسبابه ، وقد يكون منها مالايليق إعلانه وعرضه أمام القاضى ، كالزنى والسرقة ، لما فى ذلك من التشهير بالزوجة ، وفضيحة أسرتها وأولادها دائما ، وقد يكون سببا فى قتل أسرتها لها دفاعا عن شرفهم وكرامتهم ، وهيهات أن يتزوجها غيره ، بعد أن استعلن أمرها أمام القضاء ، فلهذا جعل حقا للزوج يمارسه دون ضجة أو تشهير .

ويعتبر تشريع الطلاق فى عدده وعدم وجوبه أمام القضاء ، وتشريع الرجعة بعد الطلقتين الأولى والثانية من محاسن الشريعة الإسلامية ، كما اتضح لك من العرض السابق .

ومعلوم أن الطلاق إذا حدث من الزوج بعيدا عن القضاء ، وبدون إبداء الأسباب ، يترتب عليه كثيرا أن تتزوج المطلقة من رجل آخر ، ولايجد حرجا فى

تزوجها ، لأن معظم الطلاق يتم بسبب الشقاق بين الزوجين ، ولو أنها كانت خاطئة[1] فيما بينها وبين زوجها ، فإن زوجها الجديد ،يكون خالى الذهن من خطيئتها .

ورب امرأة تكون غير موفقة فى عشرتها مع زوج ، فإن تزوجت غيره لازمها التوفيق ، ورفرفت عليها وعلى زوجها الجديد السعادة والهناء .

الزواج طمأنينة ومودة ورحمة

يمضى الرجل يومه جاهدا ، فى سبيل لقمه العيش له ولذريته ومن أجل بنى قومه ، ثم يعود إلى منزله كليلا مرهقا محطم الأعصاب ، وقد ولى النهار أوكاد ، فما لم يجد فى بيته من أسباب الراحة مايسترد به أنفاسه الحرة ، ويعيد نشاطه الطليق فإنه يرجع إلى عمله فى اليوم التالى ، وهو يشعر بثقل الحياة على كتفيه ، ويحس بالمتاعب فى أعماقه ، ويجد نفسه غير منبعثة إلى الجد ، ورجليه لاتطاوعانه فى السير ، ويديه لاتعملان فى نشاط .

---

(١) أى زانية .

ومن آيات الله تعالى الدالة على باهر قدرته وحكمته ، أن خلق لَنَا من أنفسنا زوجات لتطمئن إليهن النفوس ، وتستريح إلى مودتهن القلوب ، وليكن منابع الرحمة للأزواج المكدودين ، فيبدلهم من تعبهم راحة ، ومن كَسَلهم نشاطا ، فيخرجون إلى أعمالهم والابتسامة تعلو شفاههم ، والرغبة فى الجد والعمل تملأ صدورهم وتفيض على تفكيرهم وأَعْضَائهم حركة ونشاطا .

وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الروم :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليهاوجعل بينكم مودةورحمةإن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون–٢١ »

وإذا كانت الزوجات خلقهن بديع السموات والأرض ، ليكن مصدر الطمأنينة والمودة والرحمة فعلى كل زوجة أن تعى ذلك تماما ، وأن تعمل على أن تكون هى الواحة الخضراء ، التى يتغيا ظلها زوجها إذا عاد من عمله يتصبب عرقا ، وأن تكون النسيم العليل الذى يمر برفق عليه ، فينتشى فؤاده ، فإن راحة زوجها راحة لها ، وهناءه هناء لها ، ونشاطه عائد عليها وعلى أولادها فإن كانت على عكس ذلك حطمته وحَطَّمت نفسها وأولادها

ولكى تكون الحياة الزوجية وافية بما شرعت لأجله ، رتبت الشريعة الإسلامية لكل من الزوجين حقوقا على الآخر ، فإن

أداها على وجهها المشروع ، أعطت ثمرتها من الهناء والسعادة ، مايديم الابتسامة على الثغور ، والغبطة فى القلوب . وإن قصر فيها انعكست الآثار ، على قدر ماحدث من تقصير ، وفيما يلى حقوق كل من الزوجين على الآخر .

حقوق الزوج على زوجته

من حق الزوج على زوجته أن تكون حفيظة على ماله — إن كان لديها منه شىء — فلا تنفق منه شيئا ولاتخرجه لأحد إلا بإذنه ، مالم يكن طعاما رطبا يخشى فساده إن بقى ،فلها أن لاتنتظر إذنه فيه ، فإن التصدق به مما يرضى عنه الزوج عادة ، إذ لا فائدة فى إبقائه مادام يتعرض للفساد ، فإن كان يمكن حفظه والانتفاع به فلاتخرجه إلا إذا استأذنته أوعلمت رضاه ، ولها أن تتصدق من ماله بما تعلم علما لاشك فيه أنه يرضى عن التصدق به ، وإن لم يأذن فيه بعينه ، وعليها أن تتصدق بحكمة وبدون إسراف ، حتى لاتضر بزوجها وبأولادها ، وأن تبلغه بما تصدقت به أولا فأولا ،وعلى من تصدقت ، فربما بدا له أن يرشدها إلى أمر لم تتنبه له ، أو أن يضع لها خطة جديدة تتفق مع نقص طرأ على موارده المالية ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : «لاضرر ولاضرار »

وإذا عهد إليها بالإنفاق على المنزل ، فعليها أن تكون مدبرة حكيمَة ، فلا تجنح إلى الإسراف ، بل يحسب للزمن حسابا ، ولمستقبل الأسرة حسابا ، ومن حقه عليها أن تحفظ سره الذى استحفظها إياه ، فلا تذيعه لأحد ، قريبا كان أو بعيدا ، وأن تحفظ عرضه فى نفسها وفى بناته وأخواته ، فلا تخونه فى شىء من ذلك ، وأن تَبتعد عما من شأنه أن يؤدى إلى الخيانة أو يثير الشبهات ، فلا تأذن لصديقه أو لأى رجل كان بدخول منزله فى غيبته ، فإن ذلك مصدر شَر واسِع عريض

وعليها أن لاتجالس الرجال الأجانب وحدها أو مع زوجها فنى ذلك إزالةٌ لحاَجز الْحَياء الذى يمنع المرأة عما لايليق ، كما أنه وسيلة لمودة غير مشروعة فى كثير من الأحوال ، ومجلبة لخراب الأسر وتحطيمها .

موازنة بين آداب المسلمين وغيرهم

نقف هنا وقفة استَدْعَاهَا سرد الحديث ،لنوازن بين الأخلاق عند المسلمين ، والأخلاق عند غيرهم ،وحينما نفرغ ،من الموازنة نعود إلى ماكنا فيه .

نشرت جريدة أخبار اليوم بتاريخ أول يونيه سنة ١٩٧٤م تحت عنوان (جولة الفكر) وبتوقيع المحرر الأستاذ نعمان عاشور ، أن الصحف البريطانية ، كتبت عن رجل أعمال متزوج ولم ينجب، أنه تغيب أسبوعين، ثم أبرق لزوجته،أنه سيتغيب أكثر من شهر ، وطلب إليها أن تتسلى فى تلك المدة بصحبة صديق له ، كما كتب إلى صديقه بذلك ، وكان كلاهما يقيم وحده ، فدعاها إلى منزله لتناول الشاى ، ثم أخذ يلتقى بها فى معظم الأيام ، ثم اتفقا على الإقامة معا ، وجعلا يترددان على الأماكن القريبة من المنزل ، وهى التى كان الزوج يتردد معها عليها ، فكتب معارف الزوج إليه بذلك ، وكانوا لايعرفون أنه أذن لها بذلك ، ولم يهتم الزوج ، لأن ذلك كان بإذنه ، ولأنهما كانا يخبرانه بتفاصيل أمورهما ، وفى جملة ذلك إقامتهما معا فى منزله ، ثم عاد الرجل قبل المدة المحددة بعدة أيام ، فاتجه فورا إلى منزله بلندن ، فوجد الزوجة والصديق جالسين على مائدة العشاء،فرحب به أيما ترحيب ، وقرر الصديق أن ينصرف إلى بيته ،بعد أنانتهت مهمته فى صحبة زوجة صديقه ، ولكن الزوج دعاه إلى البقاء حتى الصباح وأن يتابع إقامته المعتادة إذا شاء .

بعدها بأسبوع تقدم الزوج إلى المحكمة ، يطلب الانفِصَالَ عن زوجته ، بحجة أنه لايشك فى قيام علاقة محرمة بينها وبين صديقه ، ولكن الزوجة صممت على البقاء معه لأنها لا تزال تكن له الحب ، ورفضت المحكمة الطلاق لأن ، الزوج لم يستطع أن يثبت جريمة الزنى عليها .

فانظر إلى السياج المنيع الذى يقى العلاقة الزوجية العثرَات فى الإسلام ، حيث حرم مثل ذلك وأدنى منه على المرأة ، ولم يسمح للزوج بمثل تلك الإباحية القذرة بالنسبة لزوجته ، فما أعظم الإسلام وما أجل تشريعاته .

عودة إلى ما كنا فيه من حقوق الزوج

ومن آداب الزوجة فى الإسلام وحقوق زوجها عليها فيه أن لا تخرج من البيت بغير إذنه ، فإن أذن لها فخرجت فنى غير زينة ، وفى ثياب محتشمة ، والأفضل أن يكون خروجها بصحبة زوجها ، فإن ذلك يدعو إلى الطمأنينة بين الزوجين ، ويبعد عنها أصحاب الفضول .

وبقاؤها بمنزلها أفضل فإنه يرضى الرحمن ، بل صلاتها فيه أفضل من صلاتها فى المسجد ، ففى حديث صحيح أخرجه

الإمام أحمد عن أم حميد امرأة أبى حميد الساعدى أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : (صلاتك فى دارك خيرٌ من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتُك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى) إلخ .. وذلك فى جوابه على قولها (يا رسول الله إنى أحب الصلاة معك) .

ومن حق الزوج على زوجته أن لا تكثر الاتصال بجاراتها ، بل تقتصر على الضرورى منه ، وألا تَدْخُلَ بيوتهن ، إلا من عرفتها بالاستقامة منهن ، ومع هذا يكون الدخول بقدر وحذر وبإذن زوجها ، فإن الله تعالى هو الذى يعلم بحقيقة ما تنطوى عليه الصدور ، وتشتمل عليه القلوب والضمائر ، وعليها أن لا تخبر جاراتها بأسرار زوجها أو بيتها ، أو تفاصيل شئونها ونعمتها ، فإن الجارة تحسد الجارة ، وتحاول أن تهدم سعادتها ، وربما سعت فى سلب زوجها منها ، طمعا فى نعمته وجَاهِهِ ووسامته ، وذلك بإغرائه بالتزين له ، وتنفيره منها ، وغير ذلك من وسائل المكْرِ والدهاء .

ولْتَحذَرِ الزَوْجةُ سماعَ ما يُسىء إلى حسن عشرتها معه ، فإن القلوب تتغير بالكلام ، فاذا تغيرت فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فلْتُفَوِّت على أصحاب الغرض أطماعهم ، ولتحرص على حبها لزوجها ، ولتبتعد عن كل ما ينفرها من عشرته ، أو ينفره من عشرتها ، فلا تسمع لمن ينتقص ماله أو راتبه أو وظيفته أو حسبه ونسبه أو وسامته ، ولترض بما قسم الله لها من أمر زوجها ، ولتعلم أن أهم ما يطلب فى الزواج عفة اللسان واليد ، والاستقامة والحب لزوجته ، والقيام بشئون بيته على قدر استطاعته ، فإذا توفر فيه ذلك ، فقد توفرت لها أسباب السعادة ، وما سوى ذلك فمظاهر كاذبة ، وسراب خادع.

والعسر الطارىء ليس بعيب ، فقد يجعل الله للصابرين المدبِّرين ، بعد العسر يسرا ، قال تعالى : « فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا » .

وبالجملة فالحب والرضا بين الزوجين ، هما صمام الأمان ، والعاصم من ريب الزمان .

روى عن أسماء بنت أبى بكر — رضى الله عنهما — أنها قالت تزوجنى الزبير ومالَهُ فى الأرض من مال ولا مملوك ، ولا شىء غير فرسه وناضحه[1] ، فكنتُ أعلف فرسه ، وأكفيه مؤنته

(١) الناضح الناقة التى يسقى بها النخل .

وأسوسه ، وأدق النوى لناضحه وأعلفه [١] ، وأستقي الماء وأخرز غَرْبه [٢] وأعْجِنُ [٣] ، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ ، حتى أرسل لى أبو بكر جارية ، فكفتنى سياسة الفرس ، فكأنما أعتقنى : اهـ .

فها هى ذى أسماء بنت أبى بكر الصديق ، خير الرجال حسبا ونسبا وسابقة فى الإسلام ، ومن أكثرهم مالا ، زوّج كريمته أسماء ذات النطاقين ، من الزبير بن العوام ، وكان وقت تزوجه منها فقيرا ، فاحتملت فقره وساعدته ، فحملت عنه بعض الشئون التى لم يكلفها الله بها ، وصبرت حتى جاء اليسر بعد العسر ، إذ أصبح للزبير بعد ذلك شأن عظيم فى الفتوحات الإسلامية ، وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان من أولاده منها عبد الله بن الزبير ، الذى بويع بالخلافة فى المدينة وإقليمها ، وقاتلته جيوش يزيد بن معاوية ، وقتل شهيدا — عليه رحمة الله —

---

(١) أى تدق نوى التمر لتعلف به جمله الذى يسقى به النخل ، ولعله كان يستأجر لسقى نخل غيره ، إذ لو كان له نخل لذكرته ، ولكفاها ثمره عن تعبها ، إذ كان يحصل من فائضه أجر خادم يكفيها ويريحها .

(٢) الغرب : الدلو الكبير ، وخرزه خياطته .   (٣) أى تعجن الدقيق .

ولا يعيب الزوج أنه غير وسيم ، فالجمال جمال الدين ، والخلق ، ورقة الشمائل وسعة الأفق ، والبشر وطلاقة الوجه ، وطهارة النفس ، ولين العريكة ، فلا ينبغي أن تفخر عليه بجمالها ، أو تزدريه لدمامته ، قال الأصمعي :

دخلت البادية فإذا امرأة من أحسن الناس وجها ، متزوجة رجلًا من أقبحهم وجها ، فقلت لها ، : أترضين أن تكونى زوجة لمثله ؟ فقالت : يا هذا : لقد أسأت فى قولك ، لعله أحسن فيما بينه وبين الله فجعلنى ثوابه ، أو لعلى أسأت فيما بينى وبين خالقى ، فجعله عقوبتى ، أفلا أرضى بما رضى الله لى ؟ قال الأصمعي : فأسكتتنى المرأة .

ولا ينبغى أن تفخر عليه بحسبها ، أو مالها أو وظيفتها أو الشهادة الدراسية التى حصلت عليها ، أو أن تعيرهُ بفقر أسرته ، فمثل ذلك وغد الصدر ، ويقضى على الألفة ، ويفتح أبواب الشقاق ، ويعرض الأسرة لهزات شديدة ، ويفسد أخلاق الأولاد ، ولا يستتبع فائدة .

ولن تفلح امرأة تتبع هذا النمط فى عشرتها الزوجية ، فإن كانت تريد بذلك أن يطلقها لتتزوج سواه ، فهل ضمنت

السعادة عند سواه حتى تهدم بيتها بيدها ، وهل فكرت فى أولادها — إن هى تركت أباهم إلى غيره — وهل أمنت عقاب الله فى الدنيا ، بالحرمان من السعادة الزوجية عند غيره ، وفى الآخرة بعذاب النار ، جزاء هذا البطر الأعمى ، ألا رحم الله امرأة راضية قانعة ، وأورثها السعادة فى الدنيا والآخرة .

ومن آداب الزوجة أن تظهر لزوجها فى زينة وبهجة وانشراح ، حتى يشعر باهتمامها به ، وانعطافها نحوه ، فلا تنصرف نفسه عنها ، ولا يمنعها صلاحها ودينها من ذلك ، قال تعالى : «ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن»

وقال الأصمعى رأيت فى البادية امرأة ، عليها قميص أحمر مُخْتَضِبَةً ، وبيدها مسبحة ، فقلت ما أبعد هذا من ذاك ، فقالت :

ولله منى جانب لا أضيعه .·. وللهو منى والبطالة جانب

قال الأصمعى : فعلمت أنها امرأة صالحة ، لها زوج تتزين له .

فعليها أن يكون همها إصلاح شأنها ، وتنظيف نفسها وبيتها وأولادها ، لتدخل السرور على زوجها ، وعليها أن

تُقَدِّم حق زوجها على حق أقاربها ، وأن يعف لسانها عن سب أولادها أو غيرهم ، وأن لاتراجع زوجها فيما لاضير عليها أو على شئون المنزل فيه ، أما فى ذلك فلها حق المراجعة بالأدب والمعروف .

ومن آدابها أن تلازم الصلاح والانقباض إذا غاب زوجها ، فإذا عاد رجع إليها انبساطها ومرحها .

ومن حقه عليها أن لاتطالبه بأكثر من حاجتها ، ومن حق الله عليها فى شأنه أن تنبهه إلى الامتناع عن الكسب الحرام ، وتخوفه من عاقبته ، كما كان يصنع نساء السلف الصالح ، كما تنبهه إلى الصلاة إن قصَّر فيها ، ليبارك الله فى العشرة بينهما .

ويحرم عليها أن تجْحَدَ إحسانه وتتنكَّر لمعروفه ، وتَتَجنَّى على حقوقه ، قال صلى الله عليه وسلم : « أريتُ النار فإذا أكثر أهلها النساء . يكفرن .

قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئا ، قالت ما رأيت منك خيرا قط »

وصية حكيمة من أم لابنتها

خطب عَمْرُو بْنُ حُجْر ملك كندة[(١)] ، أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى ، فلما تزوّجت نصحتها أمها أسماء بنت خارجة الفزارى بالنصيحة الآتية ، وقد عملت بها ، وانجبت منه أبناءه السبعة الذين حكموا اليمن بعده ، وفى ما يلى خلاصة النصيحة .

أىْ بُنَيَّة : إن الوصية لو تُركتْ لفضل أدب ، تُرِكَتْ لذلك مِنْكِ ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لِغنى أبويها ، وشِدة حاجتهما إليها ، كنتِ أغنى الناس عنه ، ولكن النساء خُلِقْن للرجال ، ولهن خلق الرجال .

أىْ بُنَية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلَّفْت العُشّ الذى فيه درجت ، إلى وكْرٍ لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فَاحْفظى له خصالا عشرا ، يكن لك ذُخرا .

---

(١) كندة قبيلة من اليمن ، تنسب إلى أصلها ثور بن عفير ، وكان يلقب بكندة بكسر الكاف ويكندى أيضا ، لأنه كند أباه النعمة ، أى كفر بنعمة أبيه ، ولحق بأخواله ، انظر القاموس .

كونى له أرضا يكن لك سماء ، وكونى له مِهَادا يكن لك عمادا ، وعليك بالقناعة وحسن السمع والطاعة ، وبالتفقد لمواقع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وعليك بالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة[١] ، وتنغيص النوم مَغْضَبة ، وعليك بالاحتراس بماله ، والإرعاء على حَشَمِهِ وعياله — وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير — ولاتعصين له أمرا ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره .

ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتما[٢] والكآبة[٣] بين يديه إن كان فرحا .

حقوق الزوجة على زوجها

قدمنا للقارىء الكريم حقوق الزوج على زوجته ، والآن نقدم إليك حقوق الزوجة على زوجها ، حتى لايَظُنّ الأزواج

(١) أى يلهب غيظه منك ، تريد منها أن تعد له طعامه فى وقته حتى لايغتاظ منها
(٢) أى إن كان به هم وحزن .
(٣) الكآبة : الحزن .

أن كل الحقوق لهم ، وليس عليهم مثلها لزوجاتهم ، ففى الإسلام عدالة ، والزواج شركة فى مزرعة الحياة ، فعلى كل من الشريكين مثل ماله على الشريك الآخر ، قال تعالى : «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» وتلك الدرجة لاتقتضى أكثر من أن يكون الرجل قيما فى بيته وأميرا فيه ، مع رعاية حقوق رعيته ، قال صلى‌الله عليه وسلم : «والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته» وفيما يلى بعض حقوق الزوجات على أزواجهن :

أول حقوق الزوجة على زوجها أن يتزوجها بصداق معجل كله أو بعضه ، أو مؤجل ، قال تعالى : «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» ، فإذا زفت إليه عاشرها بالمعروف لأن الزواج شرع ليدوم ، ولا يدوم إلا مع العشرة الهنيئة .

وبما أن الزوجة تركت أسرتها التى هى جزء منها ، وانتقلت إليه وهو منها غريب ، فالواجب عليه أن يسليها عن هذه الفرقة بعشرة هنيئة لينة ، حتى تزول الوحشة بينه وبينها ، وتحل الألفة محلها ،

وقد أوصى الله بحسن عشرتهن بقوله : «وعاشروهن بالمعروف» وعليه أن لا يديم مؤاخذتها على الهفوات ، فمَنْ مِنَ الناس

لا يخطىء ، ولا بأس أن يعظها بالقدوة الحسنة وبالمعروف عندما تخطىء .

وجاء فى الحديث الصحيح توصية بهن فى قوله صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بالنساء خيرًا ، فإنهن خلقن من ضِلع ، وإن أعوج شيءٌ فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » .

ومن حسن العشرة البشاشة فى وجه الزوجة والعناية بها ، واحترام مكانتها كزوجة وكأم ، وحسن الحديث معها ، واستشارتها فى شئون المنزل ، واستعمال الكلام اللين الوديع معها ، دون غلظة ليس لها مبرر ، وأن يكون نظيف الخلق ، نظيف الثياب ، طيب الريح ، وبخاصة عند مضاجعتها .

ومن حسن العشرة مداعبتها والمزح معها ، ففى ذلك تطييب لقلبها ، وإدخال السرور على نفسها ، لما فيه من الاهتمام بها ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يمزح مع نسائه ، ويعاملهن كزوج ، وينزل تكرما لمستوى عقولهن ، روى أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يسابق عائشة فى العدو ، فسبقته يوما ، ثم سبقها وقال لها (هذه بتلك) .

وفى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم ، كان من أفكه الناس مع نسائه ـ أقول ـ وكان ذلك منه مراعاة لبشريتهن وأنوثتهن[١] ، كما أن النبوة لاتمنع من حقوقه البشرية

وكان عمر بن الخطاب مع خشونته يقول : (ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى ، فإذا التمسوا ماعنده وجدرجلا) أى فإذا طلبوا ماعنده وقت الجد ، كان رجلا كامل الرجولة .

ولا ينبغى أن يبالغ الزوج فى الدّعابَةِ ولين الخلق مع الزوجة، حتى لا تجترىء عليه ، وتسقط هيبته ، وتفسد أخلاقها ، فخير الأمور الوسط ، والاعتدال بين الإفراط والتفريط .

فإذا رأى ما يخالف الشرع أو الأدب ، أظهر الجدّ وامتعض ، حتى تثوب إلى رشدها ، ولا تندفع فى سوء الأدب أو مخالفة الشرع ، قال صلى الله عليه وسلم : « تَعِس عبد الزوجة » وهو الذى تسيره زوجته على هواها ، فلا ينبغى أن يمكن رجل لزوجته من نفسه ، فيعكس الوضع الذى شرعه الله بقوله « الرجال قوامون على النساء »

---

(١) وهذا يقتضى أن يكون لهن ماللغير من دواعى الغبطة والانشراح البريئة

قال الحسن : (ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى ، إلا كبّه الله فى النار) ، ومع أن عمر رضى الله عنه كان يرى التبسط مع المرأة كما تقدم ، فإنه كان يقول : (شاوروا النساء وخالفوهن) ، وذلك إذا كانت المخالفة أنفع من الموافقة ، أو كانت مساوية لها فى الفائدة ، ولكنها لإثبات عدم تبعية الرجل للمرأة — إن اقتضى الأمر ذلك —

درس طباع المرأة

وعليك أن تدرس طباع زوجتك ، وتعاملها بما يصلحها وفق حالها ، وكن فى ذلك مثل الطبيب ، يعطى الدواء وفق الداء ، فاستعمل اللين والسياسة أولا ، فإن لم ينفعا فاستعمل الخشونة ، فإن بدا منها الانصياع والمسالمة والدعة ، فعد إلى اللين والمطايبة والرحمة ، ولا تعكس فتكون كالذى يضع السيف فى موضع الندى ، أو الندى فى موضع السيف .

الغيرة على المرأة

عليك بالاعتدال فى الغيرة فلا تستعملها إلا فى موضعها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهى غيرة الرجل

على أهله من غير ريبة[1] » ؛ لأن ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه بقوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » .

وقد أشار علىٌّ — كرم الله وجهه — إلى آثار الغيرة بلا مبرر بقوله : « لاتكثر الغيرة على أهلك ، فترمى بالسوء من أجلك » .

وأما الغيرة فى موضعها فمحمودة ، ففى الحديث الشريف « إن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله » ... إلى أن قال : « فأما الغيرَة التى يحبها الله ، فالغيرة فى الريبة ، والغيرة التى يبغضها الله ، فالغيرة فى غير ريبة » ... إلى آخر الحديث وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يغار والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى الرجل ما حرم عليه » أقول وفى حكمها أن تأتى المرأة ما حرم عليها .

فإذا رأيت من زوجتك ما يخشى شره فنبهها إليه ، وامنعها عن الاسترسال فيه ، فالوقاية تمنع من الداء ، ولا تبالغ فى إساءة الظن بها ، وتتبع عوراتها ، حتى لا تفسدها .

وأحسنُ علاج لمنع الغيرة ، أن لا تكثر من نزولها إلى الأسواق ،

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان .

(٢) أخرجه أبو داود وابن حبان وكذا أحمد والطبرانى بمغايرة يسيرة .

قال الحسن : أَتدعُون نساءكم يُزاحِمْنَ ، العِلوج [١] فى الأَسواق قبح الله من لا يغار ، فإن خرجت الزوجة بإذن زوجها ، والأَفضل أن يكون زوجها معها ، حماية لها من الفضول ، وطمأْنينة له ومنعا من سوء الظن بها ، وأن تكون حين تخرج فى ثياب محتشمة .

وكما أن الزوج مكلف بأَن لايغار على زوجته ، إلا فى مواطن تحسن فيها الغيرة شرعاً ، حتى لا يفسدها بكثرة الشك فيها ، فكذلك هى مأْمورة أن لا تغار ، إلا فى مثل ذلك حتى لاتفسده .

تتمة حقوق الزوجة

ومن حقوق الزوجة على الزوج ، أن ينفق عليها نفقة معتدلة ، فلا يكون فيها تقتير ولا إسراف ، كما قال تعالى : « ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا » .

وقد حض النبى صلى الله عليه وسلم على نفقة الأَهل فقال : « خيركم خيركم لأَهله » وقال فى حديث آخر ذكر فيه أنواع

---

(١) العلوج : جمع علج بكسر العين ، وهو الرجل الكافر ، ومثله كل رجل يخشى نظره .

النفقات التي يثاب عليها: « أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك ».

وكان الإمام على رضى الله عنه ، متزوجاً بعد السيدة فاطمة الزهراء – رضى الله عنها – أربع زوجات ، فكان يشترى لكل واحدة منهن فى كل أربعة أيام بدرهم لحماً ، مع أنه كان من أهل التقشف والزهد ، وكان الدرهم فى عهده يُشْتَرى به كثير ،

وكان ابن سيرين يستحب أن يعمل الرجل لأهله كل جمعة (فالوذجا) والفالوذج طعام يتخذ من الدقيق والماء والعسل والسمن ، وقد اقتبسَ اسم (البالوظة) فى عصرنا من هذا الاسم ، وتصنع (البالوظة) من النشا والماء والسكر ، وقد يضاف اللبن والسمن إلى ذلك ، وتسمى (المهلبية) نسبة إلى القائد العربى (المهلب بن أبى صفرة) لأنه كان يحبها ، وقد وصفها له أطباؤه .

وما كان يطلق عليه (الفالوذج) فيما مضى ، يسمى اليوم (عصيدة) فهى طعام يتخذ من الدقيق والعسل أو السكر ، والسمن والماء .

وينبغى للزوج أن يأمر زوجته بالتصدق بما بقى من طعام رطب يفسد بتركه ، فهذا أقل درجات الإحسان ، وللزوجة أن تفعل ذلك بغير تصريح منه ، لأنه مما يجرى به العرف الإسلامى .

ولا يليق بالزوج أن يستأثر بمأكول طيب عن أهله ، سواء أكان ذلك فى البيت أم خارجه ، ولا ينبغى له أن يصف لزوجته طعاماً رآه وهو لايريد إطعام أسرته منه ، وعليه أن يأكل مع زوجته وأولاده ولا ينفرد عنهم ، وأن يبلغها من الأحكام الشرعية ماتجهله – إذا كان منه على بينة ، فإن تشكك فى معلوماته ، فليسأل عالماً ثقة عنها ، ويُبْلغها ما علم ، وعليها أن تعمل بما يبلغها من الأحكام ، لترضى ربها وزوجها ، وتكون من أصحاب المنازل الرفيعة عند الله تعالى .

وعلى الزوج أن يستعمل السياسة الشرعية عند نشوز الزوجة ، وعدم طاعتها له ، فيما هو من حقه شرعاً ، أو من حق الله بأن يعظها وينصحها ، فإن لم يفلح ذلك فى ردها إلى الجادة ، هجرها فى المضجع إلى ثلاث ليال ، وله أن يهجرها فى أمر الدين إلى ثلاثة أشهر ، كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع

زوجاته ، حينما أَسَرَّ إلى بعضهن حديثًا فأَذَعْنَهُ ، ثم عاد إليهن ، بعد ندمهن على ما حدث منهن[1]

فإن لم يفلح الهجر أصلح بينهما حَكَمٌ أو اثنان ، يمثل كل واحد منهما طرفًا من الزوجين .

وقد بعث عمر – رضى الله عنه – حكمًا ليصلح بين زوجين ، فعاد قائلا : لم أستطع الإصلاح بينهما ، فضربه بدرته وقال : إن الله تعالى يقول : – أى عن الحكمين – «إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » فعاد الرجل ، وتلطف بينهما وأحسن العزيمة ، فأصلح بينهما .

وإذا كان النشوز من أحدهما ، أو كليهما ، فليجتهد كل منهما فى حل الخلاف وإعادة الوفاق بينهما ولا ينتظرا الوسطاء رعاية لكيان الأُسرة ، وحماية للأَولاد ، من آثار الانفصال بينهما ، وهى فى عصرنا آثار مدمرة وعنيفة ، فهى دائرة بين التشرد وفساد الأَخلاق ، وضياع المستقبل ، ومن لا يعيش لأَولاده ، فالموت خير له من الحياة .

---

(١) يباح للزوج أن يؤدب زوجته بالضرب غير المبرح إذا لم يفلح هجره لها فى ردها إلى الرشد والاستقامة ، لكنا ننصح بعدم استعمال هذا الحق إلا عند الضرورة القصوى ، ويكون بحيث لا يشين جارحة منها .

وليجتهد كلا من الزوجين أثناء الخلاف ، فى كف لسانه عن الآخر ، وكثرة الكلام ، حتى لاتتسع الشقة بينهما ، وأعود فأذكر الزوجين بقوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

*

حقوق الأولاد وآدابهم

لم يشرع الله الزواج للمتعة الجنسية فحسب ، بل شرعه لإنجاب الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا ، حتى يبقى الجنس البشرى خليفة باستخلاف الله تعالى له فى عمارة أرضه ، والسلطان على تربتها ومائها ، وزرعها وحيوانها ، ومعادنها وهوائها ، وتسخير ذلك كله لخيره فى معاشه ومعاده .

ولقد جعل الله العاطفة الجنسية سبيلا إلى هذا الإنجاب ووسيلة إليه ، وهيأ الله دوافعها اللائقة بها فى كل من الرجال والنساء ، حتى تتحقق مشيئة الله تعالى ، بإنجاب ذريات متتابعة من أولاد آدم ، ليكونوا خلفاء الله ونوابه في أرضه ، قال تعالى : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

فعلى كل مسلم أن يقصد من زواجه — مع المتعة والإعفاف — إنجاب الذرية ، تحقيقا لمشيئة الله تعالى ، ليكون له فى عمله الجنسى مثوبةٌ وأجر ، فإن المباحات والشهوات ، تتحول بالنية إلى طاعات ، كما جاء في الحديث الصحيح « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وإذا كانت الأرض لا تصلح إلا بصلاح أهلها ، فلذلك يجب على الوالدين أن ينشئا أولادهما تنشئة صالحة ، وأن يتعهداهم بالتربية النظيفة ، ليشبوا على الفضيلة وعلو الهمة ، كما يتعهد البستانى حديقته بالمخصبات والرّى ، فيترعرع شجرها ، وتؤتى أكلها شهيا للآكلين ، جميلا يسر الناظرين .

وقد حمل الله الوالدين هذه المسئولية العظمى بقوله : « يَـٰٓأَيُّهَا الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »[1] .

فالأولاد أمانة فى أيدى الوالدين ، يسألان عمّا صنعاه فى تربيتهم ومختلف شئونهم بين يدى الله تعالى ، فهما مكلفان بوقايتهم بالتربية الفاضلة .

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم ضمن حديث صحيح : « والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ،

---

(١) سورة التحريم : الآية (٦)

والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها »
ويقول : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع ».

والأولاد المهذبون سِرُّ سعادة الأسر ، ومصدر هنائهم ، وراحة نفوسهم .

مشقة تهذيب الأولاد

وتهذيب الأطفال من أشق الأمور ، ولكن الله سبحانه ييسره بالصبر ، وحسن السياسة ، وسعة الأفق ، وجميل الحيلة .
فلا ينبغى الضجر مما يصنعه الأطفال ، ولا القسوة عليهم ، فإن ذلك يأتى بعكس المطلوب ، وما يرى من (شقاوة) الأولاد ، وحركتهم الدائمة ، يمكن تحويله إلى عمل نافع ومفيد .

واعلم أن قلوبهم جواهر نفيسة ، خالية من كل نقش ، قابلة لأن ينقش فيها ما يسمعونه وما يرونه من أقوال وأعمال أهليهم ومَنْ حولهم ، من خير وشر ، فنى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو ينصرانه أو يُمَجِّسانِه »

فالطفل يولد على البراءة والاستعداد للخير والشر ، وتلك هى فِطْرته ، فليحرص أبواه على أن يزرعا فى نفسه الخير ،

ويبعداه عن الشر ومفاسد الحياة ، ويهيئا له الجو الذى يكتسب فيه الأخلاق الكريمة ، والمعارف النظيفة ، ويحافظ فيه على دينه ، وعليهما أن يمنعا عنه قرناء السوء فى صباه وشبابه ، حتى لا يفسدوا عليه ما يتعلمه من أسرته ومدرسته ،

وهذه هى الوصايا العامة ، وفيما يلى جزئيات من التأديب والتربية النافعة .

ألوان من التربية الفاضلة

الأصل فى تربية الطفل اللين والقدوة الحسنة وحسن التوجيه ، فلا ينبغى أن تستعمل الخشونة معه ، إلا عند الضرورة القصوى ، وبقدر ، ودون إصرار أو إظهار عداوة ، ليدرك الولد أن عقابه أو الخشونة معه لأجل مصلحته ، لا لكراهته ومعاداته ، حتى لا يصر على ما هو عليه ، عنادا ومكابرة .

وللبيئة أثر عظيم فى نشأة الطفل ، فليحرص ذووه على أن تكون بيئته مزرعة خصيبة ، يتناول منها الشهىّ الطيب من الأخلاق والعادات ، فلا تقع عينه ولا تسمع أذنه ، مالا يليق دينا وخلقا وأدبا .

ولكلّ سِنٍّ من عمر الطفل ما يناسبه من التربية والمعاملة ، وقبلةُ الحنان فى الأطفال الصغار لازمةٌ وضرورية لحياتهم

العقلية والنفسية والخلقية ، فإنها تشعرهم بأنهم محبوبون فى أسرتهم ، فتتربى فيهم عاطفة الحب لمن حولهم ، والشعور بالمودة لهم ، وينتقل شعورهم هذا ، شيئا فشيئا إلى المجتمع الذى يعيشون فيه ، أما القسوة عليهم فإنها تُعَقِّدهم ، وتسىء إلى نفوسهم وأخلاقهم ، إذ تورثهم الغلظة والقسوة على من قسا عليهم ، ثم على المجتمع من حولهم .

رأى الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقبل سبطه الحسين رضى الله عنه ، فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم « من لا يرحَم لا يُرْحَم » .

ودخل أحد الولاة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فوجده يداعب أطفاله ، فاستنكر ذلك منه ، فسأله : كيف تصنع فى أهلك ، قال : إذا دخلت سكت المتكلم وقام الجالس ، وامتلأت القلوب بالخشية ، فقال عمر : إذا كان هذا حالك مع أهلك ، فكيف تكون مع المسلمين ، ثم عزله من ولايته .

فالحق أنَّ من ألوان التربية فى الصغار ، البشاشة والمداعبة ، لتتفتح قواهم العاطفية والذهنية ، وليتكون لديهم الشعور بالشخصية ، وبأن لهم كيانا فيمن حولهم .

وإذا بدر منهم قبل التمييز الناضج مالا ينبغى أن يصنعه لطفل كامل التمييز ، فيتحمله الوالدان ، قال عبد الله بن نداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس ، ذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس ، حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » .

ويظهر أن الحسين رضى الله عنه ، ركب عنق جده فى آخر سجوده ، فلذا طال سجوده على المصلين ، حين انتظر الرسول نزول سبطه من نفسه ، خوفا من وقوعه حين يقوم من جلوسه ، والشفقة مشروعة حتى فى الصلاة ، فهى طاعة من ألوان طاعة الله ، وقد كان الصحابة أثناء السجود ، لايعلمون سِرَّ إطالة الرسول سجوده ، إذ لم يروا الحسين يعلو عنق جدّه وهم ساجدون ، فلمّا أتمَّ صلاته ، سألوه عن سبب إطالة السجود ، فأجابهم بما تقدم فى الحديث ، ويجوز أنه يكون قد أخبرهم من غير أن يسألوه ، ليعلموا السبب ، وليكون تشريعاً لهم .

والأدب الذى يؤخذ من هذه القصة ، أنه لاينبغى أن ينهر الطفل الذى لايعى أن أباه أو قريبه بين يدى ربه

العالمين فى صلاته ، عندما يرتحله ، أو يجلس في حجره أثناء التشهد ، فإن القلم مرفوع عن أمثال هؤلاء الأطفال عندما يخطئون ، كما أنه لاينبغي أن يُسَاءَ إلى أمه ، بحجة أنها غفلت عنه حتى حدث منه ذلك ، فجلَّ من لايسهو ولا يشغله شاغل ، وهو الله ، أما البشر فذلك منهم كثير الوقوع .

وإذا وصل الطفل إلى مرحلة التمييز ، أُفْهِمَ برفق أن لايصنع مثل ذلك ، ووجه بحكمة إلى ماينبغي وما لاينبغي .

توجيه الغرائز

كلما كبر الطفل تنبهت غرائزه الكامنة فى نفسه ، والغريزة سلاح ذو حدين ، فهى تنفع إن أُحسن استخدامها ، وتضر إن أُسيء .

ومن الغرائز المبكرة فى التيقظ ، غريزة حب التملك والاستئثار والسيطرة ، فينبغى توجيهها وتنظيمها ، حتى لايعتدى الطفل على حقوق سواه ، ولا ينشأ شريرا مُغْرمًا بالحصول على ما في يد غيره طمعا وعدوانا .

ومنها غريزة الميل إلى الطعام ، فإنها قد تتحول عند بعض الأطفال إلى شراهة وسوء أدب بالتهافت على الطعام أينما وجد

وإن كان مملوكا لغير ذويه ، فيسيء إلى أهله ، ويكون سببا في رميهم بسوء التأديب ، وقد يدفعه شرهه إلى تتبع أطايب الطعام ، وسرعة ابتلاعه بغير مضغ ، ليأكل أكبر كمية ممكنة ، إلى غير ذلك من مظاهر سوء الأدب ، فينبغي تنظيم هذه الغريزة أولا بحسن القدوة من أهله ، وثانيا بتعليمه أن يبدأ باسم الله ، ويأكل بيمينه ، ويطيل المضغ ، ويأكل مما يليه ، ويبين له فوائد ذلك .

كما ينبغي أن يعوّد على أكل الخشن من الطعام أحيانا ، ليألفه وليريح جهازه الهضمي من الأطعمة الدسمة ، واحتياطا لتصاريف القدر ، حتى إذا أجهدته مِحْنَةٌ من الله في المستقبل تحمل بأساءها ، وصبر على لأوائها .

وبالجملة يجب أن يراقب الوالدان مختلف الغرائز في طفلهما ، ويوجهاه إلى الخير في وقت مبكر ، حتى إذا وصل إلى مرحلة الشباب الخطرة ، كان وصوله إليها وهو مستقيم الطباع ، مهذب الغرائز ، مرتضى الأخلاق ، فلا يصيبه فيها ما يصيب غيره ممن نشأوا طلقاء غير موجهين إلى معالي الأمور ، ورحم الله الشاعر إذ يقول :

وينشأ ناشيء الفتيان منا .:. على ما كان عوده أبوه

فينبغى أن يعود عدم البصق والامتخاط أمام غيره ، مالم يَغْلبه ذلك ، فليفعل بصوت خفيض داخل (منديل) كما ينبغى أن يُعَلم كيفية الجلوس المهذبة ، فلا يجلس أمام سواه ، واضعا رجلا فوق رجل ، وأن لايكثر من الكلام والثرثرة ، وأن لايبدأ الحديث مالم يكن ذلك لداع ، وأن يحسن الاستماع إلى من هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم أو يوسع للقادم ، وأن ينصرف إذا سمع لغو الكلام وفحشه ، ويُجلّ والديه ومن هو أكبر منه سنا ، قريبا كان أو غريبا ؛ ويحترم معلميه ويَقتدى بهم فيما حسن من أخلاقهم ، ويجتنب مالم يحسن ، قال صلى الله عليه وسلم : «خيار شبابكم المتشبهون بشيوخكم ، وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم» وتَشَبُّه الشيوخ بالشباب يُذم ، إن كان التشبه بهم فيما يميلون إليه من العبث والمجون والانصراف عن مكارم الأخلاق .

وعلى كل حال فالمتشبه يكون فى درجة من تشبه به عُلُوًّا وانخفاضا ، كما قال صلى الله عليه وسلم «من تشبه بقوم فهو منهم» رواه ابن عمر .

كما يعوّد أن لا يتعالى على زملائه بمال أو جاه أو ذكاء أو غير ذلك ، وأن لا يشمخ بانفه على أستاذه ، بل يكون ، متواضعا مع الصغير والكبير .

والملق والمصانعة لايحسنان فى موضع حسنهما فى طلب العلم ، روى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم » وقال ابن عباس : ذَلَلْتُ طالبا فَعَزَزْتُ مطلوبا : وقال بعض الحكماء : من لم يحتمل ذل التعلم ساعة ، بقى فى ذل الجهل أبدا : وقال بعض حكماء فارس : إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب ، قعدت وأنت كبير حيث لا تحب .

وبالجملة : ينبغى أن يوجّه إلى احترام معلمه وتوقيره ، روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من وَقَّر عالما فقد وقّر ربه » وذلك لأنه بإجلاله للعالم أَجَل أَمْرَ ربِّه باحترامه ، حتى يجعل من صلاحه قدوة له ، وقال على ابن أبى طالب : لايعرف فضل أهل الفضل إلا أهل الفضل ، وقال بعض الشعراء :

إن المعلم والطبيب كلاهما ∴ لاينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ∴ واصبر لجهلك إن جفوت معلما

وإذا كان ولدك متراخيا فى تأدية الفرائض ، فإن كان ذلك عن جهل وجب تعليمه ، وإن كان عن كسل وجب تنشيطه ، وإن كان عن عِنَادٍ وجبت سياسته بحكمة ، وبدون تراخ ، مع التحول بالموعظة من صُورة إلى صورة ، واختيار الوقت الملائم ، لا فى كل وقت حتى لا يكرهها ، وكلما بكر الوالد بالنصح والتوجيه ، كان الانتفاع بذلك أرجى وأقرب ، وينبغى الإكثار من ذكر الله أمامه قبل البلوغ ، لتتربى الخشية عنده منه ، كما يتحدث عنده عن نعيم الآخرة المتقين ، عذابها للعصاة ، ليتربى الوازع عنده مبكرا ، فإذا أدركه البلوغ على حال خيرة ، انتفع من هذه النشأة المباركة التى ثبت خيرها فى النفس ، ثبوت النقش فى الحجر .

فإذا ترك بدون توجيه قبل البلوغ ، كان علاجه بعده من أصعب الأمور ، وكثيرا ما يكون مثل النقش على الماء .

وفى مرحلة المراهقة تجب حماية الطفل من الاختلاط والخلو بالجنس الآخر ، من قرائب أو غرائب ، فإنها مرحلة حاسمة فى حياته ، فإما قادته إلى الحماية والطهر ، وإما قادته إلى الانحراف والفساد ، فليتيقظ الوالدان لهذه المرحلة تماما .

وإذا منّ الله عليه بنعمة الحياء ، كفته ومنعته من المفاسد ، وأعانت والديه على تربيته وحمايته فى تلك المرحلة ، فإنها تمنعه من ارتكاب مالا يليق ، قال صلى الله عليه وسلم: « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأُولى : إذا لم تستح فاصنع ماشئت » فالحياءُ سياج من الشر ، مانع من الدنايا ، ومن لا حياءَ عنده ، لا خير فيه .

ويجب أن يوجه الحياءُ ويستعان به على الخير ، حتى لاينقلب بالطفل إلى الجبن .

وعلى الوالدين أن لا يعوّدا أولادهما الرفاهية والزينة ونعومة العيش دائما ، فقد جاء فى بعض الحكم : « اخشو شنوا فإن النعمة لا تدوم » كما أن الولد الناعم لايصلح للكفاح فى سبيل رغيف الخبز ، ولا فى الدفاع عن وطنه ، فلابد من أن يتعود بأساءَ الحياة ، ويكافح فى سبيل نفسه وأسرته ، ليشتد ساعده ، ويقوى جَلَدُه ، فإذا طلبه الجدُّ وجَدَهُ رجلا .

وكلما ظهر من الطفل خُلق جميل ، أقر عليه ، وشكر من أجله ، ليستمر فيما ظهر منه من جميل الخلق ، ويطلب المزيد ن أمثاله ، ليحصل على رضا ربه ووالديه ، ومن يشجعونه على مثله .

فإن خالف ذلك مرة ، فلا يكشف سِترهُ أمام غيره ، فإن ذلك يزيده جرأة وعنادًا ، بل يُوجَّه سِرًّا إلى نبذِ ما بَدَا منه مما خالف به منهجه الخلقى المحمود ، ويبين له بحكمة سوء عاقبته ، حتى يرجع عنه .

ولا يكثر وليه من ملامته كل حين ، حتى لا يستهين بها ، بل يتعهده بالنصيحة الفينة بعد الفينة ، حتى لا يستمرئ طعم المعاصى بطول إقامته عليها .

وعلى الأم أن تعين زوجها فى تربية أولادهما ، وتخوفهم بأنها ستبلغ أباهم إن لم يرجعوا عن تقصيرهم .

ويعود الطفل أن يتعاون مع زملائه ، وأن يعطف عليهم إن كانوا فقراء ، بطريقة لا تجرح شعورهم ، كما يعود أن لا يتطلع إلى مافى أيدى زملائه ، وما يلبسونه وما يصرفونه .

وإذا عاد الطفل إلى أهله بشئ ليس لهم ، ولا يعرفون أنه اشتراه من مصروفه ، فعليهم أن يرفضوه ، ويفهموه أن لايتكرر منه مثل ذلك ، ويكلفوه أن يسلمه إلى ناظرالمدرسة ، إن كان قد وجده فى فنائها ، فإن كان قد أخذه بطريق غير شريف ، فليكلفوه برده إلى صاحبه ، ولو بأسلوب خيالى ، مَتْرا لموقفه ،

كأن يقول لصاحبه ، هذا قلمك وأنت غير حريص على حفظه ، وقد أردت أن أزيدك وعيا لمصلحتك ، فأخذته منك لأرده إليك ، بعد أن تجد ألم الحرمان ، ولا شك أن هذا كذب ولكنه معفو عنه ، لأنه ستر جريمة سرقته ، فهو ارتكاب لأخف الضررين .[1]

ويُعَوَّدُ الطفلُ قضاء الحاجة لأهله ، حتى يكون بارًّا بهم بمعونته لهم ، كما يعود الرياضة ويسمح له باللعب فى بعض الأوقات نهارا ، فإن مَنْعَه من اللعب والرياضة ، وإرهاقه بالاستذكار دائما ، يبطل ذكاءه ، وينَغِّص عيشه ، حتى يطلب الحيلة للخلاص من التعلم .

وعلى الوالدين أن يعينا أولادهما على برهما ، قال صلى الله عليه وسلم : « رحمَ الله والدا أعان وَلَده على بره[2] » أى لم يحمله على العقوق ، بسوء تربيته ومعاملته معه ، ولاشك أن بذاءة اللسان مع الأولاد ، والتفرقة فى المعاملة بينهم ، يحملانهم على العقوق .

---

(١) ويمكن أن يسلمه إلى ناظر المدرسة بحجة أنه وجده فى فنائها .

(٢) أخرجه أبو الشيخ بن حبان فى كتاب الثواب من حديث على بن أبى طالب وابن عمر

وإذا بلغ ولدك الحلم فعامله كشريك ، ولا تعامله كطفل ، فتفسد عليه استعداده لأن يكون ركنا يعتمد عليه فى المنزل .

ولا تعامله كعدو فيناصبك العداء ، واقض ماتستطيع من حاجته ، مادام ذلك فى مقدورك ، مالم يكن قضاؤها ضعفا لك ، أو إفسادا له ، فاصرفه عنها بالحكمة والحيلة .

وجماع القول فى تربية الطفل : كن وسطا بين الإفراط والتفريط ، ولا تكن صلبا فتكسر ، ولا ليناً رخوا فتعصر ، واستعمل من الدواء ما يناسب الداء ، والله بعد ذلك هو الكفيل بالخير ، ورحم الله الحكيم إذ يقول : ولدك ريحانتك تشمها سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم هو بعد ذلك عدوك أو شريكك : اه

فاجعله يا أخى شريكك ، ولا تجعله عدوك ، بحكمتك فى تربيته وتنشئته ، هدانا الله جميعاً سواء السبيل .

حكمة الله فى الأمراض البشرية

خلق الله كُل إنسان صالحا للبقاء فى الأرض إلى أجل محدود ، يتيسر له فيه أن يؤدى المهمة التى خلقه من أجلها ، وهى الخلافة فيها لعمارتها وعبادة الله فيها ، استعدادا للجزاء على عمله فى يوم النشور .

ونظرا لأن إقامته فيها محدودة ، فإن الله لم ينشئه إنشاء الخالدين ، كما ينشئ أهل الجنة ، بل أنشأه عرضة للأمراض ، تمهيدًا للفناء الذى ينتظره فى الحياة الدنيا .

وإنما امتحن الله عباده بالأمراض لغايتين (إحداهما) : أن يذكروا سلطان الله عليهم ، وأنهم ليسوا قادرين على حماية أنفسهم منها ، حتى يكون الله تعالى حاضرا فى أذهانهم ، فلا ينسوه بما هم فيه من الصحة والنعمة الدائمتين (والثانية) : أن لا يفاجأوا بالموت بعد صحة لم تصيبها آفة ، وقوة لم لم يصبها ضعف ، فيكون الموت حينئذ شديدا على نفوسهم ، ومفاجأة لم يحسبوا حسابها ، فكانت الأمراض من آن لآخر ، ليذكروا بها الموت ، ويستعدوا للقائه ، ولا يشتد جزعهم منه

بعد أن تَمَرَّسوا بأسبابه ودرجوا عليها ، وعرفوا أنها مقدمات له ، بل إنه أحيانا يطلب الموت ليتخلص مما أصابه من مرض عنيف ، فسبحانك ما أعظم حكمتك . يا حكيم ياعليم :

الإنسان مجبول على تلمس أسباب الشفاء

ولقد جُبِلَ الإنسان على تلمس أسباب الشفاء من مرضه ، لتعود إليه صحته ، فكان الله تعالى يهديه إليها بالمصادفة أو عن طريق التجربة ، وقد جعل الله تعالى فى أعشاب الأرض ونباتها وعناصرها ومياهها المعدنية ، وغير ذلك ، أسبابًا للشفاء ، وما يصلح منها لشفاء مرض قد يكون سببا لإحداث مرض آخر ، أو لزيادة آلامه ، وقد حبس الله سِر هذا الشفاء ، أو إحداث الداء أو زيادته عنده ، لحكم عظيمة ، منها أن يسخر الإنسان فكره فى معرفة أسرار الله فى خلقه ، فيعرف مقدار رحمته بعباده وعنايته بهم ، ولاشك أن المعرفة التى تنشأ عن إعمال الفكر تكون عميقة الجذور ، ومنها أن يعلم الإنسان أن حياته ليست ملكا لقدرته بل هى ملك لمن خلقها لغاية معينة ، فإن شاء هداه إلى إبقائها إلى أجلها ، بتوفيقه إلى أسباب شفائه من مرضه ، وإن شاء حبس عنده

أسباب الشفاء ، ليحل به الفناء ، وتنتهى به مهمته فى الحياة الدنيا كما قدر الله .

الطب فى الأرض منذ نشأة الأمراض

ولاشك أنه منذ نشأ المرض فى الأرض ، بدأ الإنسان يبحث فيها عن علاج لها ، فكما كان يبحث عن غذائه بدافع من غريزة حب البقاء ، كذلك كان يبحث عن علاج لأمراضه ، بدافع من غريزة حب البقاء أيضا .

ولانجد أمة من الأمم إلا ولها تقاليد وتجارب فى علاج أمراضها ، حتى الأمم البدائية منها ، وقد تجد فيها من وسائل العلاج لبعض الأمراض ، ما لم تهتد إليه الأمم الراقية بعد .

وأعرق الأمم فى الاهتداء إلى كثير من العقاقير والأدوية الطبيعية ، الصين والهند ومصر والعرب ، ولهم كتب ومراجع عظيمة ، كانت أساسا للطب التجريبى والصناعى ، وقد ترجمت كتبهم إلى مختلف اللغات للانتفاع بها ، وقد برع من الأطباء المسلمين كثيرون ، منهم الرئيس ابن سينا والكندى والرازى والفارابى وداود الإنطاكى وغيرهم .

ولا يزال أثر المدرسة القديمة باقيا فى الهند والصين وبعض البلاد العربية ، إذ لا يزال الكثير منهم يفضلون استعمال الأسلوب القديم من العلاج ، على الأسلوب الحديث ، ويرجعون إلى أهل المعرفة فيه من الأحياء ، أو إلى الكتب القديمة ، حين لا يوفقون إلى طبيب حى يعرف الطب القديم .

ولقد أخبرنى المرحوم الشيخ إبراهم الأطفيش العالم الجزائرى الذى لجأ إلى مصر ، فرارا من الاستعمار الفرنسى فى الجزائر بالقصة الآتية :

قال الشيخ : كان يوجد بمدينة الجزائر طبيب عربى ، يعالج مرضاه بالعقاقير على الطريقة القديمة ، وكان يلبس الزى الجزائرى القديم المعروف ، وكانت له لحية كثيفة ، وكان يحسن قراءة وكتابة اللغة الفرنسية والتحدث بها ، وكان معروفا فى الأوساط الفرنسية العليا ببراعته فى الطب القديم .

وفى يوم ذهب إلى (السنترال) لإرسال برقية إلى جهة معينة ، فسخرت منه الموظفة الفرنسية ، حين سمعت من يناديه بالفرنسية باسم الدكتور ، ويتحدث معه بالفرنسية ،

فأعطاها ورقة مكتوبة باللغة العربية ، وطلب منها تسليمها إلى مدير السنترال ، وكان هذا المدير يعرف اللغة العربية ، ويعرف منزلة الدكتور العربى الجزائرى فى مهنة الطب العربى ، وكانت الفتاة الفرنسية لا تعرف اللغة العربية ، فأخذت الرسالة وسلمتها إلى رئيسها ، فما إن قرأها حتى كلفها بملازمة بيتها ، فسألته عن السبب ، فقال لها إن الدكتور العربى قرر أن بها مرضا عقليا لا تصلح معه للاتصال بالناس ، وأخبرها أنها لن تعود إلى العمل، حتى يكتب لها هذا الطبيب أنها شفيت من مرضها ، فأدركت خطأها ، وسارعت إلى الطبيب العربى (الشيخ) فى منزله تعتذر إليه عما بدر منها نحوه ، وتتعهد بأنها لن تعود إلى مثل ما فعلته معه أو مع سواه ، فطلب منها أن تعود إليه بعد شهر ، ليكتب لها تقريرا بعودة الصلاحية لها ، ففعلت ، فكتب لها تقريرا بذلك ، وعادت به إلى رئيسها ، فأعادها ثانية إلى العمل .

طبيب كبير بمصر يعالج بعقاقير العطار

كان يوجد بمصر طبيب باطنى كبير اسمه (محمود بك عبد الوهاب) وكانت عيادته فى أول شارع (شبرا) بأول عمارة إلى يسار من يسلكه من جهة (الكوبرى) وكان أستاذا للجيل القديم من كبار الأطباء ، مثل المرحوم(عبد العزيز

باشا إسماعيل) وكان يوجد فى العشرات الأُولى من القرن العشرين ، وقد أدركته وأنا طالب بالقسم الثانوى بالأزهر ، وقد بلغت ثقة هذا الطبيب بنفسه وبالطب العربى ، أنه كان لا يجد حرجا فى أن يكتب لمريضه تذكرة طبية باسمه ، تحتوى على عقاقير يشتريها من بائيعها (العطارين) فيجد الشفاء بتناولها ، وذلك إلى جانب براعته العظمى فى الطب الحديث ، فكان يعطى لكل داءٍ ما يناسبه من هذا أو ذاك . وكانت مكتبته مليئة بالمراجع الأجنبية والعربية فى الأدوية المختلفة .

ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء

هذا حديث نبوى صحيح ، أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، كما أخرجه النسائى وابن ماجة ، والمقصود من هذا الحديث ، أنه تعالى لم يخلق مرضا من الأمراض ، إلا خلق له ما يشفيه ، عَلِمَ هذا الدَّوَاءَ من عَلِمه ، وجهله من جهله ، فلا يلزم من وجود الداء العلم بدوائه ، كما لا يلزم من استعمال الدواء البرء ، لأنه ربما لاينجح لمجاوزة الحد فى الكمية . أو الكيفية ، أو لخطأ الطبيب فى تعرف الأمراض المتشابهة ،

فيصيب فى أحدها دون غيره ، لمعنى لا يرتقى إليه إدراكه ، وقد يتحد الداء ، ولكن لم يرد سبحانه تأثير دوائه لأمر قدره الله فى علمه ، ومن هنا تخضع رقاب الأطباء والمرضى للحكم الخبير

العلاج مشروع فى الإسلام

نبه الإسلام إلى وجوب العلاج من الأمراض بقوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » أى لاتدفعوا بأنفسكم إلى الهلاك ، وتلك قاعدة عامة توجب على المسلم أن يسعى فى إنقاذ نفسه من الهلاك ، بطاعة الله فيما أوجبه عليه ، ومنه العلاج من الأمراض ، وقد ذكر الله فى القرآن صراحة عقارًا هامًا يشفى من كثير من الأمراض ، وهو عسل النحل ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة النحل : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاءٌ للناس . . » الآية ٦٩ سورة النحل .

الطب النبوى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجمع بين الطب الروحى وطب العقاقير ، وكان القرآن الكريم عنده من أهم الأسباب فى الطب الروحى ، حيث يشتد به اللجوء إلى الله ، والله هو الشافى

فى الحقيقة ، وما العقاقير إلا أسباب عادية قد تتخلف، وفى ذلك يحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : « وإذا مرضت فهو يشفين » وقد جاء العلاج بالقرآن صراحة فى قوله تعالى : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » فقد صرحت الآية بأن القرآن يهدى إلى الحق ، وهذا هو شفاء الأرواح فى العقائد والطاعات ، وبأنه شفاء ، والشفاء هنا مطلق يتناول شفاء الأمراض النفسية والعلل الجسدية، ويشهد لذلك ماجاء فى بعض أدعية النبى صلى الله عليه وسلم « وأن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى وجلاء حزنى وشفاء صدرى » وقوله أيضا : « خير الدواء القرآن »(١)

والمعول فى ذلك على همة القارئ وحسن نيته ، وثقته بكتاب الله الذى هو كلام الله العلى الكبير .

وفى ذلك يقول صاحب كتاب الأنوار المحمدية : وها هنا أمر ينبغى أن يتفطن له ، نبه عليه ابن القيم ، وهو أن الآيات والأذكار والأدعية التى يستشفى بها ويرقى بها ، هى فى نفسها نافعة شافية ، ولكن تستدعى قبول المحل ، وقوة همة الفاعل وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء . كان لضعف تأثير الفاعل

(١) أخرجه ابن ماجة ، والديلمى عنه أيضا .

أولعدم قبول المحل المنفَعل ، أو لمانع قوى فيه ، يمنع أن ينجع فيه الدواء ، كما يكون ذلك فى الأدوية والأدواء الحسية :

العلاجَ بالرقى والاستعاذة بالله

هذا النوع من العلاج و من الطب الروحى (أو الروحانى) وقد ثبت بكتاب الله وسنة رسوله ، أما ثبوته بكتاب الله ، فبنحو قوله تعالى : « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » فقد أمر الله تعالى فى هذا النص باللجوء إليه ليعيذ اللاجئ إليه من همزات الشياطين ووساوسها ، وما أشدها على حين تلح عليهم ، وتشككهم فى كل شىء حتى فى حقائق الأشياء وفى تصرفات أنفسهم ، ومثل هذا النوع من المرض النفسانى الذى تسببه وساوس الشياطين ، لا يفلح معه علاج بطب العقاقير ، وإنما يفيد فيه اللجوء إلى الله والثقة بفضله، حتى لا تجره هذه الوساوس إلى مزرعة الأوهام، فيستعصى عليه الخروج منها إلى حقائق الوجود إلا بنجدة من الرحمن الرحيم.

ونقرأ فى سورة الفلق قوله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى

العقد . ومن شر حاسد إذا حسد » فنجد المولى سبحانه يأمر بالاستعاذة به من شر ما خلق ، ومن شر ليل شديد الظلام إذا دخل ظلامه فى كل شىء ، ومن شر النفوس السواحر التى تنفث فى عقد الخيوط بقصد السحر ، ومن شر حاسد إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه ، ولا شك أن مصادرالشر المذكورة فى هذه السورة ، كثيرا ما تأتى بغتة، بحيث لا يستطاع انقاذها ، فالله تعالى يأمرنا بالاستعاذة به ليدرأها عنا ، ويعيذنا منها ، كما أنها لو جاءت بمقدمات معلومة ، فإن قدرة العبد قد لا تستطيع درأها إذا جاءت ، ولا اتقاءها إن كانت منتظرة ، فلهذا أمرنا الله بالاستعاذة به فى ذلك كله ،

فإنه لا يقدر على دفع البلاء كله سواه ، والكلام فيما جاء من الاستعاذة بالله فى سورة الناس ، يشبه ماتقدم .

أما الرُقى فقدجاء عنها فى صحيح مسلم من حديث عوف ابن مالك «كُنَّا نَرقِى فى الجاهلية ، فقلنا يارسول الله : كيف تَرى فى ذلك ، فقال : اعرضوا علىّ رقاكم ، لا بأس بالرُقى : إذا لم يكن فيها شِرك » أى لا بأس بالرقى إذا كان فيها الاستعانة بالله ، دون الاستعانة بالأوثان ، كما كان ذلك فى عهد الجاهلية

وأخرج مسلم من حديث أنس « رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرُّقى من العَينْ والحُمَة »[1] والنملة[2] » و حديث آخر بزيادة « والأذن » أى وجعها ، وهذا لا ينافى العلاج بالعقاقير فى الأخيرين .

وجاء فى مسلم عن العين برواية ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العين حق ، ولو كان شئ سابق القدر لسبقته العين » والمقصود أن الإصابة بالعين شئ ثابت موجود ، والتأثير إنما هو بإرادة الله وقدره ، كسائر الأمراض ، والعلاج النبوى منها الإكثار من قراءة المعوذتين والفاتحة وآية الكرسى والتعوذات النبوية ، مثل « أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » أى تلم وتصب بسوء .

ونحن أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ فى الأرض ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن » .

---

(١) الحمة السم والحية ونحوها . (٢) مرض جلدى على هيئة بثور .

ومنها رقية جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ،كما رواها مسلم « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ الله يشفيك ، بسم الله أرقيك » .

وروى الإمام أحمد والنسائي عن أبي أمامة ، أن أباه سهل بن حنيف حدثه « أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وساروا معه نحو ماء ، حتى إذا كانوا بشعب الخرّارِ من الجحفة ، اغتسل سهل بن حنيف — وكان أبيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة ، فقال : ما رأيت كاليوم ، ولا جِلْدَ مُخبَّأة [1] ، فلُبط سهل [2] ، فأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل تتهمون من أحد ، قالوا عامر بن ربيعة ، فدعا عامرا فتغيظ عليه ، فقال : علام يقتل أحدكم أخاه ؟ هلّا إذا رأيت ما يُعْجِبُكَ تَبَرَّكتَ ؟ ثم قال : اغْتَسِلْ له : فغسل وجهه ويديه ومِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وأطراف رجليه وداخله إزاره [3] في قدح ، ثم صَبَّ ذلك الماء عليه رجلٌ من خَلْفِهِ ، على ظهره وجسده ، ثم كُفِيء ذلك القدح ، ففَعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس »

---

(1) أي أنه لم ير مثله في جسده ولا بياض جلده، وأنه فاق في ذلك المرأة الحسناء المخبأة في الخدر . (2) أي صرع من العين وسقط على الأرض .

(3) أي ما غطاه إزاره من جسده .

رقية عامة لكل مرض

عن عبد العزيز بن صهيب قال : دخلت أنا وثابتٌ على أنس بن مالك ، فقال ثابت : يا أبا حمزة اشتكيت[1] ، فقال أنس : أرقيك برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال بلى : قال : «قل اللهم رب الناس مذهب الباس ، اشف أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت ، شفاء لا يغادر سَقَماً » أخرجه البخارى .

وفى صحيح مسلم عن عثمان بن أبى العاص أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً يجده فى جسده ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «ضع يدك على الَّذِى تَأَلَّمُ من جَسدك وقل : بسم الله ثلاثا ، وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته ، من شر ما أجِدُ وأحاذِرُ »

طب الرسول من الفزع والأرق

أخرج الترمذى عن بريدة قال : شكا خالدٌ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا رسول الله : ما أنام الليل من الأَرق » ، فقال صلى الله عليه وسلم : إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم

---

(١) أى مرضت .

رب السموات السبع وما أظلَّت ، ورب الأرضين السبع وما أَقَلَّتْ ، ورب الشياطين وما أضلَّت ، كن لى جارًا من شر خلقك كلهم جميعا ، أن يفرطَ علىَّ أحدٌ منهم أو يبغى علىَّ ، عزَّ جارُك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك » .

دعاء نبوى شامل النفع

أخرج أبو داود فى سننه عن أبى سعيد الخدرى قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة ، فقال : يا أبا أُمامة : مالى أراك فى المسجد فى غير أوقات الصلاة ، فقال : همومٌ لزمتنى ، وديونٌ يارسول الله ، فقال : أفلا أُعلِّمك كلاما إذا قلته أذهب الله عز وجل هَمَّك ، وقضى عنك دينك ، قال : قلت بلى يا رسول الله : قال قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهَمِّ والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبُخْلِ ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، قال : فقلت ذلك فأذهب الله همى ، وقضى عنى دينى . » .

وجاء فى الصحيحين أن (لا حول ولا قوة إلا بالله) كنزـا من كنوز الجنة ،

وجاء عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من كثرت همومه، فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله »

طب الرسول من الحريق

عن عبد الله بن عَمْرو – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يُطْفِئُه » قال ابن القيم : وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدنا كذلك .

وقال صاحب المواهب اللدنية : قد جربت ذلك بطيبة فى سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، فوجدت له أثرا عظيما لم أجده لغيره .

قلت وهذا لا يمنع من استعمال أدوات الحريق الحديثة كخراطيم المياه والمواد الكيمائية ، إلى جانب دعاء الله وتكبيره ، فإن اتخاذ الأسباب مشروع .

تلك هى نماذج من رقى النبى صلى الله عليه وسلم ودعائه ، لشفاء الأمراض وتفريج الكروب ، باللجوء إلى الله تعالى الذى بيده مقاليد كل شىء ، وفى كتب الشمائل والسنة غير ذلك كثير ، فارجع إليه إن شئت فى باب الطب النبوى

ومع هذا الطب الروحى ، كان الرسول يلجأ إلى الطب بالأدوية والأعشاب والعقاقير ، وإليك نماذج منها .

طب الرسول بالأدوية

جاء فى البخارى من حديث ابن عباس – رضى الله عنهما – احتجم النبى صلى الله عليه وسلم وهو محرم ، فى رأسه[1] من شقيقة كانت به » والشقيقة وجع أحد جانبى الرأس ، والاحتجام نافع لها كما يقول أطباء العرب .

وروى ابن ماجة فى سننه « أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان إذا صدِعَ ، غَلَّفَ رأسه بالحناء ، ويقول : إنه نافع بإذن الله من الصداع »

فإذا كان مع الصداع حرارة مرتفعة ، فإن الحناء نافعة جدا .

وفى تاريخ البخارى وسنن أبى داود : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شكا إليه أحد وجَعاً فى رأسه ، إلا قال له احتجم ، ولا شكا وجعا فى رجليه ، إلا قال له : اختضب بالحناء) .

---

(١) أى أجريت له الحجامة ، وهى مص الدم بعد إحداث جرح له بالمحجم فى مكان معين فى رأسه .

وجاء في الترمذي بسنده ، عن سلمى زوجة أبى رافع مولى النبي [1] — صلى الله عليه وسلم — قالت : (ما كان يكون برسول الله صلى الله عليه وسلم قُرحة ولا نُكتة [2] ، إلا أمرنى أن أضع عليها الحناء) .

طبه للرمد

أخرج البخارى بسنده عن سعيد بن العاص قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الْكَمْأَةُ من المَنِّ ، وماؤها شفاء للعين » والكمأة نبات معين لا ورق له ولا ساق ، يوجد فى الأرض من غير تكلف ببذر ولا سقى ، وجاء فى تذكرة داود الأنطاكى أنها تكون داخل الأرض كالقلقاس ، وتكون بلا نبات ولا زهر ، وأجودها ما كان فى الرمل والقفار ، وغيره ردىء ، خصوصا ما كان قريب الزيتون ، فإنه سُم قاتل ، أما الأول فيكون صغير الحجم ويؤكل ، بخلاف غيره ، وتوضع على القروح فتنظفها .

طبه للعذرة

العُذرة وجع فى الحلق يعترى الصبيان غالبا ، — عن جابر دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها

(١) أى خادمه (٢) النكته النقطة والأثر ، ولعلها تريد بها الجرح

وعندها صبي يسيل مِنْخَرَاه دما ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا له به العُذْرَةُ — أو وجع في رأسه — فقال : ويلكن لا تقتلن أولادكن ، أَيُّما امرأة أصاب ولدها عُذْرة — أو وجع في رأسه — فلتأخذ قُسْطاً هنديا [١] ، فَلْتَحُكَّه بماء ، ثم تُسْعِطه إياه ، فأمرت عائشة فصُنع ذلك للصبي فبرأ » أخرجه الإمام أحمد وغيره .

طبه بالعسل للإسهال

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري (أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، يشتكي بطنه [٢] ، فقال اسقه عسلا ، فسقاه ، فقال : إني سقيته فلم يزد إلا استطلاقا ، فقال صدق الله وكذب بطن أخيك » وفي رواية أحمد [٣] « فقال في الرابعة اسقه عسلا ، قال : فأظنه قال : فسقاه فبرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك »

ومن العلماء من قال : ليس كل إنسان به استطلاق يصلح

---

(١) قال داود الإنطاكي هو خشب يأتي من الهند ، وهو من العقاقير النفيسة في يقطع الصداع العتيق شربا وسعوطا — انظر باقي التفاصيل في تذكرة داود — والقسط يباع عند العطارين .

(٢) في رواية أخرى (استطلق بطنه) أي كان به إسهال .

(٣) عن يزيد بن هرون .

له العسل فإن كان قد صلح لهذا الرجل ، فقد لا يصلح لغيره ، وقال ابن الجوزى : حمل الآية على عمومها فى الشفاء أولى ، ويؤيده حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم « عليكم بالشفاءين – العسل والقرآن » .

طبه للإمساك

كان صلى الله عليه وسلم يوصى باستعمال السَّنَا لإزالة الإمساك وأحيانا كان يضيف إليه التمر – والسَّنَا نبت حجازى ، أجوده المكى ، وقد اعترف الطب الحديث بأن هذا النبات نافع جدا لإزالة الإمساك ، ويضاف إليه (عشب العرقسوس وغيره ، ويباع فى الصيدليات ، فى أكياس ، باسم (مسحوق العرقسوس)

طبه للاستسقاء

هو مرض تعلو به البطن ، وسببه مرض الكبد أو الطحال أو رشح الأمعاء ، أو غير ذلك ، وسمى بذلك الاسم ، لكثرة طلب صاحبه أن يسقى بالماء ، أو لكون بطن صاحبه كزق الماء ، وجاء فى علاج الرسول له مايلى .

عن أنس قال : قدم رهط من عُرَينة وعُكل على النبى صلى الله

عليه وسلم ، فَاجْتووا المدينة[1] فعظمت بطونهم ، فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : «لو خرجتم إلى إبل الصدقة ، فشربتم من ألبانها وأبوالها » رواه الشيخان ، وقد روى أنهم فعلوا ما أمرهم به الرسول ، فصحوا

طبه بالكى

فى الصحيحين « أن النبي صلى الله عليه وسلم، بعث إلى أُبى ابن كعب طبيبا ، فقطع له عرقاً وكواه عليه » أى فصده وكواه .

وفى مسلم عن جابر (لما رمى سعد بن معاذ فى أكحله[2] حسمه[3] بالكى » وعند الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم « كوى أسعد بن زرارة من الشوكة » وهى حمرة تعلو الوجه .

والعلاج بالكى معترف به فى الطب الحديث والطب القديم ، ولا يعالج به مريض بالسكر ، فإنه خطر عليه ، وله أصول معروفة لأصحاب الفن

---

(١) أى أصابهم الجوى من المدينة ، والجوى داء الجوف .
(٢) الأكحل عرق فى اليد ، أو هو عرق الحياة : قاموس .
(٣) أى قطع دمه .

الرسول ينشىء نظام الحجر الصحى

في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى إسرائيل أو على من كان قبلكم(١) ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها فرارا منه »

والطاعون بثرة خبيثة أو أكثر ، تصيب الآباط ومراق الجلد ، وهو سريع الانتشار ، قاتل لمن يصيبه ، وهو موجود فى البشرية من قديم ، وكان يفتك بها أكثر من الحروب ، ولا يُبْقِ على طبيب ولا شريف ولا غيرهما .

وقد جاء فى الحديث أنه رجز — أى عذاب وألم — أصاب الله به طائفة من بنى إسرائيل ومَن قبلنا ، وغَرض الرسول من ذلك : أن لا يجزع الناس ، إذا أصابهم ، فهو وباء فى البشرية قديم ، وقد حدث بالشام عقب الفتح الإسلامى :

وقد بيَّن الرسول سبيل الوقاية من انتشاره وحصره فى موطنه ؛ حتى تنتهى موجته ، بأنه إذا وقع بأرض ، فلا يدخلها

---

(١) شك من الراوى ، أو أن (أو) بمعنى الواو .

من كان خارجا عنها وجوبا ، حتى لاتنتقل إليه العدوى من أهلها ، كما أوجب على المقيم بأرض الطاعون أن لايغادرها حتى يزول منها ، وبذلك يُحْصَر الطاعون فى موضعه ، فلا ينتقل إلى سواه ، ويقاس عليه كل الأمراض الوبائية ، وهذا أول حجر صحى تعرفه البشرية ، صلى الله عليك ياأبا القاسم ، فقد شفيت البشرية من أمراضها الخلقية والدينية ، وسلكت بها السبيل الأقوم فى وقايتها من الأمراض الوبائية ، ووضعت لها أُسساً متينة يمكن البناء عليها فى علاج الأرواح والأجساد باللجوء إلى الله ، واستعمال العقاقير ، وسيأتى الكلام على هذا الحديث فى موضوع (العدوى بين الطب والشريعة)

من معجزات الرسول فى العلاج

أخرج البخارى فى تاريخه عن شرحبيل الجَعَفِىِّ قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وبِكَفِّى سلعة ، فقلت يارسول الله قد أذتنى ، تحول بينى وبين قائم السيف أن أقبض عليه وعناية الدابة ، فنفث فى كفّى ، ووضع كفه على السلعة ، فمازال يطحنها بكفه حتى رفعها وماأرى أثرها ، ومسح صلى الله عليه وسلم وجه أبيضَ ابن حَمّال — وكان به القوباء فلم يُمْسِ من ذلك اليوم ومنها أثر ، أخرجه البيهقى وغيره .

النهى عن استرضاع الحمقى[1]

روى أبو داود بإسناد صحيح قال : «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُسترضَعَ الحمقى ، فإن اللبن يُشَبِّهُ» أى يورث الشبه بين الرضيع والمرضعة ، وفى رواية «فإن اللبن يُعدى» وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «الرضاع يغير الطباع» وعن ابن حبيب مرفوعا «أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن استرضاع الفاجرة» أى الفاسقة .

العدوى والتشاؤم والتفاؤل
بين الطب والشريعة والعادة

من الأمور الثابتة تجربة وطبا ، أن بعض الأمراض ينتقل بالمخالطة ،من العليل إلى الصحيح ، عن طريق زفيره أو فضلاته المختلفة ، وأن لكل مرض خاصيته فى العدوى .

وقد أثبت التحليل المعملى والمجهر والتجارب العلمية المختلفة ، أن لكل مرض مُعْدٍ كائنا صغيرا يسمى علميا (الميكروب أو الفيروس) وأنه بعد انتقاله مع فضلات المريض إلى الصحيح ، يُسَبِّبُ له المرض ،عندما تنقضى على انتقاله مدة معينة ، تسمى مدة الحضانة .

(١) المراد من الحمقى المرأة المعروفة بالحمق .

ومن أجل ذلك يوصى الأطباء من يخالطون المرضى ، أن لايستعملوا الأدوات التى يستعملها هؤلاء المرضى ،إلا بعد غليها أو تطهيرها بالمحاليل القاتلة للميكروب ، كما يوصونهم بفتح بعض النوافذ فى حجرة المريض ، لتجديد الهواء بطريقة صحية ، حماية لهم من العدوى .

وهناك بعض الأمراض، لم يعرف له ميكروب يسببها ، وقد يكون له ذلك ، ولكنه لم يكشف بعد ، ولايزال سِرُّه عند الله تعالى الذى يعلم الغيب :

ومما لاشك فيه أن الله جعل لكل داء دواء ، لأن ذلك هواللائق بحكمته تعالى ،ولقوله صلى الله عليه وسلم: «ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » أخرجه البخارى وغيره ، ولكن بعض الأمراض لم يتوصل الأطباء إلى دواء يستأصله ، وإن وصلوا إلى مايخفف حِدَّته ، حتى ، تحين منيَّةُ المصاب به ، ولايزالون جادين فى البحث عن علاج له ، رحمة للمصابين به ، وعسى أن يلهمهم الله تعالى إليه ، أما معظم الأمراض فإنهم وصلوا إلى علاجه بنجاح عظيم ، إلا مع من كتب الله عليه الموت ، فإن العلاج

الذى عرف نجاحه مع غيره ، يصبح عديم الجدوى بالنسبة له ، قال تعالى : «فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون »

والشريعة الإسلامية تقر الطب على أن الأمراض تنتقل بالعدوى ، ولا يمنع من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لاعدوى ، ولاطيرة ولاهامة ولاصفر » فقد كان العرب قبل أن يشرفهم الله بالإسلام ، ينسبون كل شيء إلى أوثانهم ، فكانوا ينسبون إليها الأمطار والأرزاق ، والانتصار فى الحروب وشفاء المرضى وغير ذلك ، وكانوا يقدمون إليها القرابين لتحقيق لهم بزعمهم مايريدون .

فلما زالت دولة الأوثان ، وشرفهم الله بالإسلام ، كان لابد من تتبع أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم ، لإزالة ماعلق بها من نسبة الأمور فيها إلى غير الله تعالى ، أو من السكوت فيها عن الله ، حتى لايتسرب إليهم الشرك من أية نافذة كانت ، وهم قريبو عهد بجاهلية ،

ومن ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الأمراض تنتقل إلى الأصحاء من المرضى ، دون أن يمر بخواطرهم أن ذلك مبنى على مشيئة الله وقدره ، على قاعدتهم من نسيان الله فى أمرهم كله ، فأصبح

محتوما أن يتعلموا أن مرد الأمور إلى الله ، وأن العدوى لاتكون بغير مشيئة الله ، فلذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لاعدوى » قاصدًا أنها لاتكون بغير مشيئة الله تعالى .

ويدل على أن ذلك هو مقصوده صلى الله عليه وسلم ، أن أعرابيا حين سمعه يقول « لاعدوى : » سأله قائلا : « يارسول الله : فما بال إبلي تكون فى الرَّمْل كأنها الظباء ، فيأتى البعير الأجرب ، فيدخل بينها فَيُجْرِبُها ، قال : فمن أعدى الأول؟ » أخرجه البخارى .

أراد الأعرابى من سؤاله أن العدوى مُرذاتِيٌ ، يأتى بمجرد المخالطة ، وقد طرح جانبًا من تفكيره مشيئة الله وإرادته ، وأنه هو وحده الذى جعل المرض ينتقل من المريض إلى الصحيح ، فلهذا ردَّ النبي صلى الله عليه وسلم ردًّا مُفْحِماً ، صحح به عقيدة الأعرابى ، وردها إلى الصواب ، وبين به واقع الأمر ، إذ قال : « فمن أعدى الأول ؟ » أى فمن نقل الجرب إلى الأول الذى حدث له الجرب ، دون أن يخالط حيوانا مصابا بالجرب ،

وسكوت الأعرابى بعد جواب النبى صلى الله عليه وسلم ، دال اقتناعه بأن البعير الأول ، حيث لم يخالط مريضا بالجرب

فلا تكون إصابته بالعدوى ، بل بفعل الله ومشيئته وقدره ؛ وكذلك ماخالط المصاب بالجرب ، تكون إصابته بفعل الله وقدره ، قياسا عليه ، ومالمخالطة سوى سبب عادى للإصابة ، يجوز أن يتخلف .

وبذلك حصل مقصود النبي صلى الله عليه وسلم ، من إرشاد القوم إلى أن مَرَدَّ كل الأمور إلى الله تعالى ، وسواء أكان لها سبب عادى أم لم يكن ، كما حصل مقصوده من تَثْبيتِ عقيدتهم فى توحيد الله ، وأنه هو الفعال لما يريد ، بعدأن كانوا فى جاهليتهم القريبة ، قد نسوا الله ونسبوا الأمور إلى غير خالقها وفاعلها الحقيقى — سبحانه وتعالى —

الرسول لا ينفى العدوى بالمخالطة

واعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين قال (لاعدوى) لاينفى أن المخالطة سبب عادى فى انتقال المرض ، بل لقد سبق الأطباء جميعا فى إقرار ذلك ، ووضع نظاما للوقاية العامة من العدوى بالأمراض الوبائية ، أصبح يسمى نظام الحجر الصحى . ومن ذلك قوله : «لايوردَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ»[1] وقوله : «الطاعون

(١) أى أن صاحب الإبل المريضة لا يوردها على إبل صحيحة ، حتى لا تصاب بالعدوى .

رجز أرسل على بنى إسرائيل أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تدخلوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها فرارًا منه » أخرجه الشيخان فى صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد ، كما حذر من مخالطة المصابين الأمراض تحذيرا شديدا ، كقوله : « فِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد » إلى غير ذلك من النصائح الطبية الوقائية ، الدالة أوضح الدلالة على إقراره صلى الله عليه وسلم نظرية العدوى بالمخالطة ، على أن يعتقد ، أن هذه العدوى لاتكون إلا بمشيئة الله تعالى ، كما أشار إليه قوله : «فمن أعدى الأول » ؟ فكم من مخالط شديد المخالطة للمرضى ، ينجو من المرض لأن الله شاء له الوقاية ، وكم من بعيد عن جَوّ المرض ، فتك به مرض أصابه عفوا بتقدير الله جل وعلا ،

من فوائد قول الرسول « لا عدوى »

ومن الفوائد العظيمة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لاعدوى » على معنى : لا عدوى إلا بمشيئة الله ، أن لا يترك الأصحاء مرضاهم ، ولا يهملوهم خوفا من فاعلية العدوى ، فمتى عرف المخالطون للمرضى ، أن العدوى لا تنتقل إليهم بغير قدر الله ، امتلأت قلوبهم بالطمأنينة ، قاموا على خدمتهم ، مع الاحتياط قدر الإمكان ، باتقاء

إفرازاتهم المختلفة ، ولا شك أن إيمان المخالط بذلك ، يرفع معنوياته ، ويجعله أكثر مناعة ضد المرض ، من ذلك الذى يرجف فؤاده من فاعلية العدوى ، وحتمية انتقالها ، فالخوف من العدوى أقوى العوامل على ضعف أسباب المقاومة الذاتية فى صاحبه ، وذلك أمر مسلم به طبيا ، فما أشد فتك الوهم والخوف من المرض بصاحبه — وإن لم يخالط المرضى — جاء فى بعض الحكم : «إن من القرف التَّلَف»

فعلى كل مسلم أن يعلم أن المرض لايأتيه بغير مشيئة الله تعالى ، وأنه قد سلح الإنسان بسلاح قوى يرد عنه عوادى المرض ، وهو كرات الدم البيضاء ، فهى الحارس الإلهى الذى يدفع عنه فيروسات الأمراض وميكروباتها ويفتك بها ، وعليه أن يتحرز من إفرازات مريضه قدر إمكانه ، ويترك السلامة بعد ذلك لله تعالى ،

وليعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما كتب عليه فلا بد من أن يصيبه ، فلا يغنى حذر من قدر ، فقد جفت الأقلام وطويت الصحف .

التشاؤم

ومن العادات الموروثة فى الناس، أن يتشاءموا ببعض الأمور، وأن يقعد بهم هذا التشاؤم عن المضى نحو الأعمال النافعة، وهذا نقص فى الخلق عظيم، فإن من شأنه أن يحول دون جلب النفع ودفع الضر، فالله سبحانه لم يجعل ما يتشاءم به الناس سببا لجلب الشؤم عليهم إن هم انطلقوا إلى تحقيق مايريدون من مصالحهم.

ولهذا كان لابد لصاحب الشريعة من أن يقاوم هذا التشاؤم ويضع له حدا، فأتبع قوله: «لا عدوى» قوله: «ولا طيرة» أى ولا تطير، والتطير التشاؤم، مأخوذ من الطير فإن العرب كانوا إذا أرادوا الشروع فى سفر أو عمل، أنفروا أول طائر يلقونه، أو أزعجوه من عشه، فإذا طار جهة اليمين، تفاءلوا ومضوا لتحقيق ما يريدون، وإذا طار إلى جهة غير جهة اليمين تشاءموا وقعدوا عن تحقيقه، كما كانوا يتيامنون بالسوانح، وهى الطيور تمر من اليسار إلى اليمين، ويتشاءمون بالبوارح، وهى الطيور تمر من اليمين إلى اليسار، ثم عم التطير فى التشاؤم، سواء أكان بسبب الطير أم سواه، والرسول

لا يقصد بقوله : «ولا طيرة » نفى ذات التطير ـ أى التشاؤم ـ فإنه كان موجودا ، ولا يزال عند بعض الناس ، ولكنه يقصد النهى عنه ، ويريد أن يحول دون إزعاج الطير فى أعشاشها ، وقد صرح بذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم: «أقروا الطير على وكناتها » أى اتركوها قارة فى أعشاشها ، ولا تخرجوها لتتشاءموا أو تتفاءلوا بها .

أثر التفاؤل والتشاؤم

وكانت الفرس والعرب أكثر الناس تشاؤما ، ولا يزال كثير من الناس يتشاءمون، ويحجمون عن الإقدام يائسين من الظفر بتحقيق رغباتهم ، متقلبين فى الشقاء والتعس ، وإلى جانبهم هؤلاء السعداء من المتفائلين ، الذين يقدمون على مطالبهم ، بعد أن يهيئوا لتحقيقها الأسباب ، ويثقوا بما عند الله من الخير ، فلا يصدهم خوف من مجهول ، ولايكفهم خور فى العزيمة ، ولا يثنيهم طير يمر ناحية اليسار أو غيره عن الإقدام ، فيعودون بالفوز بالمقاصد ، وينقلبون بتحقيق الرغائب ، فإن الغنم فى الإقدام ، والخيبة فى الإحجام

فمن ابتلى بالتشاؤم فليصرف عن نفسه وساوس الشيطان، وليعلم أن الرزق والخير تابعان للطلب لا للهرب ، وأن ليس

لما يتشاءم به الناس أثر فى عدم تحقيق ما يريد : ولا لما يتفاءلون به أثر فى تحقيقه، قال عكرمة : كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله عنهما ، فمرطير يصيح ،فقال رجل من القوم : خير ،فقال ابن عباس :لا خير ولا شر ولنعم ما قاله الشاعر لبيد :

لَعمْرُك ماتدرى الضوارِبُ بالحصى ولا زاجرات الطير ماالله فاعل

وقد وصف النبى صلى الله عليه و سلم المضى فى المطلوب علاجا للتشاؤم فقال : «إن فى الإنسان ثلاثة الطيرة والظنَّ والحسد فَمَخْرَجَهُ من الطيرة أن لا يرجع ، ومخرجه من الظن أن لا يحقق ، ومخرجه من الحسد أن لايبغى » .

عبرة

من أسوإ أنواع التشاؤم ماحدث من الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فقد فتح المصحف فخرج له قوله تعالى : «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد» وكان فى وسعه أن لا يتشاءم بشىء من القرآن ، فإنه جاء للعظة لا للتشاؤم ، لكنه أبى إلا أن يتشاءم بهذه الآية ، فمزق المصحف — مزقه الله وأنشأ يقول :

أتُوعِدُ كُلَّ جبَّار عنيد
فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر

فقل يارب مزقنى الوليد

فلم يلبث إلا أياماً قتل بعدها شر قِتْله ، وعُلِّق رأسه على قصره ، ثم على سور المدينة ، وكان شؤمه عليه من جهة تمزيقه كتاب الله ، لا من جهة الآية الكريمة ، فقد تُصادِفُ البَرَّ ، كما قد تصادف الفاجر .

التفاؤل مشروع

التفاؤل مشروع ، لأنه باعث على الجد ، ومعوان على الظفر بالمطلوب ، إذ هو سبب لقوة العزم على المضى ، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ، ويتفاءل فى غزواته وحروبه وشئونه ، سمع كلمة فأعجبته فقال : « أخذنا فألك من فيك » وروى الترمذى وصححه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج لحاجة ، يعجبه أن يسمع يا نُجيح يا راشد » وأخرج البخارى بسنده عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا طِيَرَةَ وخيرها الفأل ، قالوا وما الفأل يا رسول الله ؟ قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » .

ولما وصل النبي بجيشه إلى حنين ، ليغزو هَوازن قال له رجل : إنى انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا بهوازن عن بكرة أبيهم ، بظُعُنهم[1] ونَعَمِهم وشياههم ، اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، متفائلا بذكر أنعامهم وشياههم ، وقال : تلك غنيمة للمسلمين غدا إن شاء الله تعالى ، وقد تحقق فأله ، وغنم منهم غنائم كثيرة .

فالإسلام يقر الفأل ، لأنه يشد العزيمة ، ويدفع إلى الأمام ، بخلاف التطير ، فإنه مرض نفسانى ، يدعو إلى الاستخذاء والتقاعس عن الخير ، فلهذا نهى عنه الشرع ، وذلك دستور يقره الطب النفسانى ويمدحه .

الهامة

كان من عقائد الجاهلية ، أن روح القتيل الذى لايؤخذ بثأره ، تصير هامة وتصيح قائلة : اسقونى من دم قاتلى ، فإذا أدركوا ثأره امتنع ظهورها ، واستقرت روحه فى قبرها .

---

(1) جمع ظعينة ، وتطلق على الهودج فيه امرأة أم لا ، قاموس .

والهامة طائر يطير فى الليل ، ويسمونه الصدى ، قال الزبرقان بن زيد فيها :

يا عمرو إلّا تَدَعْ شَتْمِى ومَنْقَصَتى

أَضربْك حتّى تقولَ الهامةُ اسقونى

وقال ابراهيم بن هرمة :

وكيف وقد صاروا عظاما وأَقْبرًا

يصيح صداها بالعشى وهامُهَا

وهذا الاعتقاد فاسد ولا صحة له ؛ وقد كلف أَصحابه ضحايا لاعداد لها ، فإنه كان يؤدى إلى قيام القبائل أَو الأُسر بعضها على بعض ، للأَخذ بثأْر أَحد أَفرادها ، فيفنى منهم العدد الكثير ، من أَجل فرد واحد .

فلذلك نفى النبى صلى الله عليه وسلم الهامة قائلا : « ولا هامة » ليرجع الأَمر إلى القضاء ، فيحكم بقوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أَن النفس بالنفس » ... الآية : إن كان القتل عمدا ، أَو يحكم بالدية إن لم يكن عمدا ، ما لم يعدل أَولياءُ الدم إلى العفو ، عملا بقوله تعالى : « وأَن تعفوا أَقرب للتقوى » .

ومما يؤسف له أَن هذا الاعتقاد ، لا يزال له بعض الظلال والآثار فى بعض الأَقاليم والقبائل العربية ، فإن عادة الأَخذ

بالثأر فى مجتمعهم ، أكثر بروزاً من الرجوع إلى القضاء ، مع أن حكم الله أعدل ، والأخذ به ألزم ، والعدول عنه إلى ما هم عليه ، مُخِلٌّ بالأمن ، وسبب لأشنع الكوارث .

صفر

من عقائد العرب قبل الإسلام ، أن شهر صفر ، هو شهر النحوس والفتن ، فكانوا يتشاءمون به ، فلا يعقدون فيه زواجا ولا بيعاً ، ولا يسافرون فيه لتجارة ، ولا يباشرون مقصدا من المقاصد الجادة .

كما أنهم كانوا يعتقدون أن الألم الذى يشعر به الجائع ، سببه حية عظيمة فى البطن ، تنهش من أحشائه وضلوعه ، أطلقوا عليها اسم (صفر) فنفى الرسول صحة هذين الاعتقادين ، بقوله فى الحديث : « ولا صفر » فإن ذلك من الخوف الذى لا يليق بالعقلاء .

الغول والتولة

ومن عقائدهم أن الغيلان تتراءى للناس فى الفلوات ، على أشكال مختلفة ،فتضلهم عن سواء السبيل وتهلكهم ، وما يهلكهم سوى هذا الوهم الكاذب ، والخيال العاثر ، فهو الذى يصل بعقولهم ، فيضلون عن سواء السبيل ، الموصل إلى غايتهم .

كما اعتقدت نساؤهم أن حمل التولة ، يحبب المرأة إلى زوجها ، والتولة خرز أو حجارة أو ودع أو نحوها ، وكانت نساؤهم يحملن هذه الأشياء ، فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن اعتقاد إضلال الغُول ونفع التولة بقوله: « ولا غول ولا تَولَة) كما جاء فى بعض روايات الحديث ، وقال فى التميمة والودع : « من علَّق تميمة فلا أتم الله له ، ومن عَلَّقَ ودعة فلا أودع الله له » ودخل ابن مسعود على امرأته ، وفى عنقها شىء معقود ، فجذبه فقطعه ، ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا : اهـ.

جزى الله نبينا على هذه النصائح والإرشادات الجليلة ، ما هو أهله من الصلاة والتسليم ، والإجلال والتكريم

التلقيح الصناعى فى الأرحام والأنابيب

مقدمة :

لله تعالى فى خلقه شئون وحكم «يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير»

فالأمور لاتجرى دائما على وتيرة واحدة ، ليعلم الناس أن من وراء هذه الظواهر إلهًا ذا قوة قادرا قاهرا ، له وحده حق الاختيار وحق المشيئة والتقسيم ، و أنه ليس فى قدرة أحد أن يحقق لنفسه مايريد ، وليس فى قدرة سواه أن يعينه على تحقيق مايبتغى ، إلا أن يشاء الخالق الذى يعلم ماينبغى لعباده ، وماتصلح به الأرض التى يعيشون عليها ، ومايصلح به الكون جميعه ، ولهذا بقى العالم بحكمه وتدبيره – من يوم أن خلقه الله حتى الآن – دون أن يعتريه فساد ، أو تسرب إليه وهن «فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير» وسوف يظل كذلك حتى يتحقق قوله تعالى : «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار»

فالخيرة دائماً فيما يختاره الله مبدع هذا الكون الجميل ، ولا يختار دائما إلا ما فيه مصلحة ، لأنه حكيم خبير ، فلهذا يتحتم على كل مخلوق أن يرضى بما قسمه الله ، فهو أعلم بمصلحته ومصلحة سواه ، ولو أشرك معه آخر فى الاختيار أو التنفيذ ، لفسد كل شىء .

ولا ينبغى لأحد أن يعترض على الله فيما قسمه الله له ، أو يجزع لأنه تعالى حرمه من الذرية ، أو أعطاه ذكورا أو إناثا خُلّصًا ، أو عددا قليلا أو كثيرا منهم ، فذلك ليس من شأنه ، بل من شأن الخبير البصير ، الذى عنده الأسباب والحكم الداعية لهذا التفاوت ، وهى فى مجموعها تشير إلى المصلحة العامة أو الخاصة ، أو إليهما جميعا ، أو إلى تذكير الناس بأنه وحده هو الفعّال صاحب الاختيار ، وأن له حِكَماً قد يظهر بعضها للناس ، وقد تخفى ويعلم سرها العليم الخبير .

هذه مقدمة بين يدى الموضوع ، أردت بها أن يرضى كل مؤمن بما كتبه الله له ، وأن يتجنب الوقوع فى شرك الدجالين ، وأن لا يرتكب موبقات تغضب ربه ، ولا تحقق له أمنيته التى يبتغيها ، كما نفصله فيما يلى .

التلقيح الصناعي بالأرحام

حُرِم بعض الأزواج الإنجاب ؛ لأن حيواناتهم المنوية مَيِّتة ، مع استعداد نسائهم له ، وكان هؤلاء فيما مضى يرضون بقضاء الله تعالى ، وقد يشبعون رغبتهم فى رؤية الأطفال فى بيتهم بتربية أطفال لأقاربهم أو أطفال لقطاء .

ولم يكن الناس فى هذا الاتجاه التربوى على نسق واحد ، فمنهم من كان يربى الطفل ابتغاء مرضاة الله ، دون أن يتبناه ، ومنهم من كان يتبناه ويورثه ماله ، ويمنع أقاربه الشرعيين من الميراث ، بطريقة لايقرها شرع الله تعالى .

وأخيرا ظهرت فكرة الإنجاب الصناعى فى أوروبا وأمريكا ، وسمح بعض الأزواج هناك باستعمالها ، رغبة فى الحصول على أطفال يولدون فى البيت ، يشبعون بهم رغبتهم فى الأطفال ، وإن لم يكونوا منهم ، اكتفاء بأنهم ولدوا من زوجاتهم بغير مباشرة رجل .

وطريقته كما قرأنا عنها ، أن يحصل الزوج لزوجته ، أو تحصل هى على نطفة رجل أجنبى مجهول فى أنبوبة ، من مصرف طبى أعِدَّ لمثل هذا الغرض ، وأن يضع الطبيب النطفة فى مكان

الإنجاب أمام الزوج ، ليطمئن على أن زوجته لم يباشرها رجل آخر ، فإن حملت من هذا التلقيح اعتبر الولد الحاصل منه ولدا شرعيا لهما عندهم ، والحق أنه لاينتمي إلى الشرعية بسبب وماهو إلا جريمة كبيرة حمل إثمها الزوجان.

ويوم أن ظهرت هذه الجريمة فى المجتمع الأجنبي ، تساءل الناس هنا ، أيحل مثل ذلك ؟ وقد أجيبوا من العلماء بأن مثل ذلك حرام .

وأقول : إنه مع حرمته يجب تعزير المرأة التى ترتكب هذا الإثم ، والتعزير عقوبة دون حد الزنى ، وكذلك يجب عقاب زوجها إذا حصل ذلك بعلمه .

ولايحكم برجم الزوجة كما فى الزنى ، لعدم المباشرة ، ولو قال أحد برجمها ، لكان لقوله هذا شبهة فى أن بعض الغرض من الزنى قد حصل فعلا .

ولاشك أن المرأة التى يبيح لها زوجها ذلك ، سوف تستهين بحرمة الزوجية ، ويضعف عندها الوازع الذى كان يحول بينها وبين الزنى ، فتجرؤ عليه وتقارفه دون علم الزوج ،

اعتمادا على أنها حملت من التلقيح الصناعى الذى رضى به الزوج .

فليحذره الأزواج ، فإنه باب واسع ، يدخل منه إثم كبير ، وفساد عظيم .

التلقيح بالقطنة الملوثة

ويباشر التلقيح الصناعى بعض (الغجريات) بطريقة خفية ، وذلك بأن تعطين الزوجة الصالحة للإنجاب ـ وزوجها عقيم ـ قطنة مبللة يزعمن أن بها دواء للحمل لايعرفه سواهن ، ويطلبن من الزوجة أن يغشاها زوجها بعد أن تحملها مباشرة ، فإن مافيها من الدواء يمنح الحياة لنطفة زوجها ، ويجعلها قادرة على الإنجاب ، فإذا حملتها المرأة وغشيها زوجها العقيم . ؛ وحملت هذه الليلة ، ظنت وظن زوجها معها أن الحمل من هذه المباشرة الزوجية ، بسبب هذا الدواء .

وهذه حيلة شيطانية ، لا تجوز إلا على السذج الغافلين ، فليس الدواء المذكور سوى نطفة رجل تعرفه (الغجرية) ، وهى التى كانت سببا للحمل ، لما فيها من الحيوانات المنوية ، فليحذرها الرجال والنساء جميعاً .

ويلاحظ أن المرأة العقيم ، لاتستفيد من هذه (القطنة) لعدم وجود بويضة صالحة عندها ، تتلقح بهذه النطفة المدسوسة .

وعند مقياس الروضة شجرة جميز ، أحاطها بعض الدجالين بهالة من القداسة ، وأطلقوا عليها اسم (المندورة) ، وبدعاياتهم لها حملوا بعض النساء المحرومات من الذرية ، على زيارتها والتبرك بها ليحملن :

ومعلوم أن لحاء شجر الجميز إذا شق ، خرجت منه مادة لبنية ، وقد استغل الدجالون هذه الظاهرة فى الشجرة المذكورة ، وماهى إلا واحدة من شجر الجميز الذى يتمتع كله بمثلها .

وذلك أنهم أشاعوا أن المرأة التى تحمل قطنة مبللة بلبنها ، فى مكان العفة منها ، ويغشاها زوجها فى حين حملها (القطنة) ، تحمل ، سواء أكان العقم منها ، أم من زوجها ، .فأقبل بعض النساء المحرومات من الذرية على زيارتها ، ولبست كل واحدة منهن قطنة ، متوهمة أنها مبللة (بلبن الجميزة) كما سوله لها أولئك الدجالون .

وكانت بعض النساء يحملن بعد هذه العملية ، ويتوهمن أن الحمل سببه لبن الشجرة التى تدعى (المندورة) ،

ولكن الأمر ليس كذلك ، فإن مافى القطنة كان من مَنِىّ أولئك الدجالين ، غمسوا فيه القُطْن ، فعلق به بعضه ، وأعطوه نساءهم ، فقمن بإيهام الزائرات ، أن ما به من المادة البيضاء هو من لبن (المندورة) المبارك ، وطلبن منهن دخول دورة المياه ، وحمل القطن داخل مكان العئمة منهن .

وبدهى أن المرأة التى تحمل من ذلك الماء ، هى المستعدة للحمل والعقم من زوجها ، أما المرأة العقيم ، فإنها لاتحمل منه مطلقاً .

ويلاحظ أن الحيوانات المنوية تبقى حية نحو خمسة عشر يوما ، إذا حفظت فى مكان مناسب لحفظها وحَوْلَهَا نطفتها .

أطفال الأنابيب

بلغت عملية التلقيح الصناعى فى سنة ١٩٦٩م حدا جريئا ، فقد عمد ثلاثة من علماء الإنجليز ، إلى تلقيح بويضة امرأة بحيوان منوى من رجل ، داخل أنبوبة اختبار ، وتعهدوا التجربة حتى جاءت فى النهاية بطفل داخل أنبوبة الاختبار ، ثم قتل هؤلاء الأطباء ذلك الجنين ، حتى يتمكنوا من فحص نتائج التجربة فحصا شاملا ، وهؤلاء العلماء من الأطباء قاموا بأبحاثهم ، تحت إشراف جامعة كمبريدج

نشرت هذا الخبر صحيفة أخبار اليوم المصرية ، بتاريخ ١٥ - ٢ - ١٩٦٩ نقلا عن مجلة (نيتشر العلمية) وذكرت عنها أن المرحلة الثانية فى التجربة ، ستكون وضع البويضة بعد تلقيحها داخل الرحم ، لتواصل دورة الحياة ، وتنتهى . بولادة طفل بالطريق الطبيعى .

كما ذكرت عنها أن هذا الاكتشاف ، يعيد الأمل لملايين النساء اللاتى يعانين العقم ، ويجعل من الممكن إنتاج أجنة فى أرحام السيدات العاجزات عن الإنجاب ، بسبب انسداد قناة (فالوب) ليتمكن من إنتاج أطفال طبعيين ، وقالت إن أحد رجال الكنيسة عاب التجربة :

وقالت صحيفة الأخبار المصرية - بتاريخ ١٦ - ٢ - ١٩٦٩ نقلا عن تقرير علمي : إن الهدف من هذه التجربة : هو معرفة الخطوات البالغة التعقيد ، التى تمر بها عملية الإخصاب . حتى يؤدى ذلك إلى معرفة المزيد من وظائف الخلايا والأجنة ، والصفات الوراثية ، ومختلف مراحل تكوين الجنين ، وإنه قد ظهر لهؤلاء العلماء أن عملية الإخصاب تمر بمراحل بالغة التعقيد ، أكثر آلاف المرات مما تصوروا ، وإنهم لم ينجحوا

إلا بعد آلاف العلميات الكيماوية والطبيعية ،التى باءت بالإخفاق قبل اهتدائهم إلى السبيل الصحيح ، وإنهم اهتدوا فى التجربة خارج الرحم ، بالقنفذ البحرى ، الذى تتم عملية الإخصاب عنده فى الماء ، وإنهم بدأوا تجربتهم بالفيران ، وأخفقت تجاربهم فيها ٨٤٤ مرة قبل أن تكلل بالنجاح .

وأخيرا اهتدوا إلى الطريق الصحيح ، بأخذ حيوانات منوية لذكر الفيران ، استخرجوها من أنثى الفيران ، بعد ساعتين من تلقيح الذكر لها ، وبهذه الحيوانات المنوية لقحوا بويضة أخرى من أنثى الفيران .

وإنما استخرجوا الحيوانات المَنَوِيَّة من الأنثى بعد أن لقحها الذكر ، لتكون قد مرت بمرحلة التحضير التى لا يمكن أن تتم خارج الرحم ، ليتمكن الحيوان المنوى بهذه المرحلة من إخصاب البويضة

ثم قالت جريدة الأخبار : نقلا عن تقرير بمجلة (نيتشر) العلمية ، إن التلقيح تَمَّ عن طريق الخلط البسيط ، بين الحيوانات المنوية للذكر وبين البويضة ، فى وسط كيماوى مهل التحضير ، ووضعت أنبوبة الاختبار فى حَضَّانة ذات

حرارة معينة ، وبذلك نجحت التجربة التى أعيدت بنجاح أربعين مرة .

وقالت : إن تجربة الفيران الناجحة ، أمكن أن يطبقها هؤلاء العلماء ، بزعامة الدكتور (رُوبرْتِ إدْوَارْد) على الإنسان ،وإن الدكتور المذكور ،صرح بأن الهدف لم يكن صنع أطفال داخل أنابيت ، بقدر ماهو خطوة هامة فى الدراسة الفسيولوجية ،وتحقيقٌ فى نفس الوقت لآمال راودت الكثيرات من النساء ، كما قرر هؤلاء العلماء أن الهدف لم يكن صنع أطفال بصفات معينة يمكن تعديلها أو تغييرها حسب رغبة الأطباء أو الآباء .

هذه هى خلاصة ما كتبته الأخبار ، نقلا عن تقرير لهؤلاء العلماء ،وقبل أن نذكر رأى الدين فى ذلك ، نسجل هنا ما أثبته هؤلاء العلماء فى تجاربهم ، من عظمة الله فى خلق الإنسان ، تلك العظمة التى لم يدركوا بعض أسرارها ، إلا بعد إخفاقهم فى تجاربهم نحو تسعمائة مرة ، وصَدَقَ الله إذ يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ويقول : « أم خلقوا من غير شىء أم

هم الخالقون ، فإن ما صنعوه إنما هو من خلق الله ، كما سنوضحه في رأى الدين .

أليست هذه كتجربة استنبات النبات

إن هذه التجارب ذكرتنا بما يصنعه أطفالنا ، تلاميذ المدارس الابتدائية ، حين يزرعون البصل فى أكواب الماء ، ويستنبتون القمح فوق قطن مبلل بالماء ، ليطبقوا ماسمعوه من مدرس التربية الزراعية على ما يزرعون ، فيَرَوا الجذور تنبت أوّلًا ، ثم البراعم ، كما فهموه ، من مدرسهم ، وقد استبدل هؤلاء الأطفال بالتربة الماء أو القطن المبلَّلَ به ، ليستطيعوا أن يشاهدوا تطورات الإخصاب .

فالذى فعله هؤلاء العلماء ، يشبه مايفعله أطفالنا ، بفارق أساتذية هؤلاء ، وإجرائهم نفس التجربة فى الإنسان ، فقد جعلوا أنبوبة الاختبار بديلا من الرحم ، ليروا تطورات مراحل خلق الإنسان ونموه الشديدة التعقيد ، كما جعل أولادنا الأكواب والقطن المبلل فى الأطباق ، بديلا من الأرض ليروا ، تطورات النبات :

وهؤلاء العلماء لو كانوا يفعلون ذلك ، ليتعرفوا مدى قدرة العليم الحكيم فى خلق الإنسان ، ويتعلموا من أمور تكوينه

ما يساعد على علاج بعض الأمراض ، والنقص التكوينى ، ولا يترتب على علمهم هذا وتعليمه لغيرهم أضرار ، لقلنا هذا عمل يجوز تبريره ، بحجة أن الغاية الشريفة تبرر الوسيلة ، كما بررنا تشريح الموتى لنفع الأحياء ، وكما بررنا إنبات أطفالنا للنبات فى القوارير والأطباق ، بدلا من إنباته فى الأرض لتطبيق العلم على المعلوم ، وتعلم طريقة الزراعة ، وتقديس الخالق جل وعلا .

الدين يعتبره جريمة وإثما كبيرا

لكن عملهم هذا اقترن بجريمة فظيعة ، وسوف يستتبع آثارا سيئة ، وإليك البيان :

(أول جريمة) لهذا العبث ، أن هؤلاء العلماء - بعد أن تكون الجنين داخل أنبوبة الاختبار - قتلوه كما نقلته أخبار اليوم ، وقتل النفس حرام بإجماع الديانات ، حتى المصطنعة منها ، فإنه لا فرق بين جنين ينشأ فى الرحم ، وآخر ينشأ خارجه ، إذ الأصل فى كليهما حيوان منوى ، وبويضة من آدميين خلقهما الله تعالى ، وقد نشأ عن تزاوجهما

نَفس آدمية ، فى كل من الرحم وأنبوبة الاختبار ـ إن صح ما يقولون .

فإذا كان لا فرق فى الحيوانية بين فرخ احتضنت بيضته الدجاجة ، وفرخ آخر احتضنته الحضّانة الصناعية ، فكذلك لا فرق فى الإنسانية بين جنين احتوته أرحام الأمهات ، وآخر احتضنته أنابيب الاختبار .

فإذا كانوا قتلوه لأنه لا يستطيع أن يعيش على غذاء الأطفال إذ لم ينشأ فى الرحم كما نشأوا ، فماذا أجداهم هذا الجهد المضنى؟الذى كانت نهايته الإعدام ، وكيف طاوعتهم نفوسهم أن يعدموا إنسانا يرونه حيا كالأطفال ـ كما زعموا ـ وبخاصة بعد أن بذلوا فيه هذه التجارب الشاقة فترة طويلة .

(وثانى جريمة) ستتلو هذا العبث ، جريمة خلقية واسعة الانتشار ـ كما قدروا له وكما هو منتظر له فعلا ، فإنهم صرحوا أنهم لا يريدون بما فعلوا مجرد الدراسة ، بل وتحقيق أمل الكثيرات المحرومات من الإنجاب ، لانسداد قَنَاةِ (فالوب) لديهن ، فإنه من المعلوم أن انسداد هذه القناة ، يجعل المرأة عاجزة عن إنتاج بويضة قابلة للتلقيح بنطفة زوجها

وسوف يجلبون لها بويضة من امرأة أخرى ، لتلقح بحيوانات زوجها المنوية داخل رحمها ، لتقوم هى بحضانة هذه البويضة الملقحة مدة الحمل المعتاد .

فالولد الذى تلده بهذه الطريقة ، ليس لها فيه سوى الحضانة ، فكيف يكون هذا الولد نَسِيبًا لها يرثها وتَرِثُه ، ومثلها بالنسبة له كمثل المرضعة لولد غيرها ، وهما لا يتوارثان .

بل وكيف يعتبر ولدا شرعيا لزوجها ،والبويضة التى لقحها بمائه من غير زوجته ، أليس مثله فى هذا ، كمثل رجل زنى بامرأة أجنبية ، ولقح بويضتها بمائه ، ولا فرق بينهما إلا أن زناه بالأجنبية ، كان عن طريق زوجته التى أوصلته إلى بويضتها المستعارة للإنجاب .

وهل الطفل المتولد عن ذلك ، يحمل صفات المرأة الحاضنة وزوجها ، أو يحمل صفات صاحبة البويضة ، وصفات زوج الحاضنة ، إنه يحمل صفات الزوج وصاحبة البويضة ، كولد الزنى .

فإذا كنا قد حرَّمنا نقل النطف من الرجال الأجانب ، إلى امرأة ولود ، لأن زوجها عقيم ، نظرًا لأن هذا يشبه الزنى ،

فهذه مثلها ، فإن النتيجة إنجاب أولاد غير شرعيين ، إذ لم يجتمع الزوجان على أصلهم فى كليهما ، فالنطفة فى المرأة الولود لغير الزوج ، والبويضة فى المرأة العقيم لغير الزوجة .

(وثالث جريمة) ستترتب على هذه التجربة غرور أولئك العلماء وظنهم أنهم شاركوا الخالق جل وعلا فى الخلق ، وقد روا على ما قدر عليه من خلق الإنسان الذى انطوى فيه العالم الأكبر ، كما ستترتب عليها غرور من سيقلدونهم ويأخذون عنهم ، ويصنعون مثل جريمتهم .

وعلى صفحات هذا الكتاب نخاطب المؤمنين فنقول : إن هؤلاء العلماء لم يأتوا بشىء من عندهم ، فالنطفة والبويضة من خلق الله تعالى ، ولايستطيع أحد إبداعهما ، والمواد التى أحاطوا الجنين بها وكذلك الجو الذى يسّروه ، ليهيئوا له بيئة الرحم ، كل ذلك من خلق الله ، ومستنبط من نظام الله فى تكوين الجنين .

والعلماء الذين قاموا بالتجربة ، وكذا عقولهم التى اهتدوا بها من خلق الله ، والطريقة التى سلكوها من إرشاد الله ، وفوق كل ذى علم عليم ، وماخفى من خلق الله وشئونه أعظم مما ظهر ،

وصدق الله تعالى إذ يقول : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » .

وقد نشرت جريدة الأخبار ، أن مسئولا بالفاتيكان ، صرح أن الفاتيكان يرى أن كل هذه العمليات (غير أخلاقية) وغير مشروعة .

وقد أحسن الفاتيكان بهذا التصريح فى العالم المسيحى ، وهو بهذا يضم صوته إلى صوت العلماء المسلمين الذين يستنكرون هذه الجريمة البشعة ، فى مبدئها وفى آثارها المرتقبة ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

سكنى الكواكب فى نظر العقل والدين

يسأل الإنسان نفسه منذ بعيد ، هل الكواكب والنجوم التى نراها خلقت لأهل الأرض؟ وهل أرضنا يلزم لها كل هذه النيرات ، وهى تفوق أرقام الحساب التى عرفها الجنس البشرى بمليارات الأضعاف ؟

ثم يقول : أنا كائن صغير ، وأرضى كوكب صغير ، فأنا وهى لا نستحق كل هذه العوالم المتألقة الفائقة ، التى لا غاية لعظمتها ، فلابد أن الله تعالى خلق فى كثير من هذه الكواكب خلقاً مثلنا ، يعيشون فى جو يشبه جونا ، ويحيون حياة تشبه حياتنا ، ومن حولهم حيوانات كحيواناتنا تستعمل فى أغراض مثل أغراضنا ، وبساتين مليئة بفواكه تشبه فواكهنا ، وبها رياحين وزهور ينتشر منها عبير كالتى فى أرضنا ، وفيها أراض كثيرة البقول والأعشاب ، يتخللها رواب ووهاد ، وتهامات ونجاد ، وصحارى وجبال ، ومناظر تسرح فيها العيون ، وتنجلى بها عن القلب الشجون :

ثم يقول : لابد لهذه الكواكب عن شموس حارة وهاجة ، يعيش أهل تلك الكواكب على أشعتها الدافئة الوضاءة نهارا ،

حتى إذا جن الليل ، استضاءوا بأنوارها المنعكسة منها على كواكب أخرى ، تشبه القمر الذى نستضىء به ليلا ، ولابد أن أهل الكواكب يرون فى السماء كواكب تزينها للناظرين ، وتهدى فى مسالكها فى الليل السالكين ، كما نشاهد ذلك فى السماء ، وننتفع به :

ثم يقول : أليس الله قديرا على كل شىء ، أو ليس هذا الظن له ما يبرره فى حكمة الله وعظمة ملكه وجلاله .

ولقد أولِعَ الإنسان من قديم برَصْدِ الكواكب ، لعله يتجلى له من غوامض أمرها ، ما يكشف عن بعض مكنوناتها ، فَنَشأ بسبب ذلك علم الفلك ، وجعل رصيده العلمى يزداد جيلا بعد جيل ، حتى بلغ فى العصر الذى نعيش فيه مبلغاً عظيما ، بعد اختراع ، المناظير الضخمة البعيدة المدى ، ومما كشفته تلك المناظير فى بعضها ، مايشبه الأنهار ، والحشائش الخضراء ، والجبال والصحارى ، فقويت بذلك الشبهة فى أن هذه الكواكب مسكونة ، ففكر العلماء فى السفر إلى القمر ، لأنه أقرب الكواكب إلينا ، لعلهم يكشفون فيه حياة ما لبعض الكائنات الحية ، وليتعرفوا وجوه صلاحيته لسكنى أهل الأرض أو إقامتهم فيه بعض الوقت ،

ليدرسوا منه الكواكب الأخرى ، ويسافروا منه إليها – إن أمكن ذلك – حتى يتحققوا من صدق ماحدثتهم به نفوسهم ، من أن بالكواكب سكانا يعيشون مثلما نعيش ، ويموتون مثلما نموت ، وأن هذه السموات لم تخلق من أجل هذه الأرض الصغيرة وحدها ، وأن الأرض ماهى إلا واحدة من أرضين ، عديدة مثلها ، وأنه ليس هناك مايمنع من أن أرضنا تكون ضمن سماوات تلك الأرضين ، بانعكاس الوضع فى الدورة الفلكية ، كما أن تلك الأرضين موجودة ضمن السموات بالنسبة لوضعنا فى الفلك ، فإن كل ما علاك سماء .

دارت كل هذه الخواطر بأذهان المفكرين ، فعكف عباقرتهم على التفكير فى صنع قذيفة توصلهم إلى القمر ، تدفعها قوة هائلة تقاوم جاذبية الأرض ، وتشتمل تلك القذيفة على أجهزة لدراسة الأشعة الكونية وأثرها فى الكائن الحى عند سفره ، ودراسة أسرار الفضاء ، وإيصال تلك المعلومات التى تحصل عليها إلى الأرض ، حتى يكون السفر إلى القمر مأمون العاقبة .

ثم قالوا : لا بد من دراسة الأساليب التى تجعل عودة القذيفة مأمونة ، حتى إذا استغلها بعض البشر عادت بهم ، ومعهم معلومات يقينية عن هذا الكوكب ، وكل ذلك لايتأتى إلا بوقود شديد فى قوة الدفع ، وصنع أجهزة يعيش فيها الكائن الحى محفوظا من فقد الضغط الجوى أو غيره من الأسباب ، إلى غير ذلك من اللوازم الضرورية لنجاح الرحلة .

وأخيرا وصلوا بعد مختلف التجارب إلى مايريدون ، وأنزلوا بشرا على أرض القمر غير مرة ، وجاءوا منه بأجزاء من تربته ، ولسوف نستفيد مما وصل ويصل إليه أولئك الدارسون ، آيات وبينات على قدرة الله تعالى ، وعظيم حكمته وبديع خلقه «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب»

ولقد أرسلوا قذائف إلى المريخ ، وأخرى إلى الزهرة ، ولا تزال المعلومات عن هذين الكوكبين غامضة .

رأى الدين فى سكنى الكواكب

قد علمت رأى العقل فيما أسلفناه ، وبقى أن نعلم رأى الدين فيه ، ونحن نعرضه عليك أيها القارئ الكريم فيما يلى دون خفاء أو غموض .

من فضل الله علينا نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم : أنه تعالى ضمّن كتابه العظيم ، رصيدا من الآيات لايجعل أى كشف علمى أو كونى غريبا عليه ، أو منافيا لضوابطه وقواعده ، بل تراه قد أشار إليه إشارة ، أو صرح به تصريحا ، وإذا كان مَنْ قبلنا لم يدركوا مراميه ، فإنه بصدد أن ينكشف عنه القناع ، ويعرف بذلك قدر الدين الذى جاء به كتابه العظيم ، وذلك حينما يتوصل الباحثون إلى ماخفى على الناس من أمر نصوصه :

فإذا تحقق ماظنه الناس من أن بعض الكواكب مسكون ، فإن ذلك لايفاجأ به الإسلام ، إذ ليس غريبا على نصوص كتابه المجيد ، ولا على أفهام علمائه المحققين ، فمن النصوص التى تشعر أن السماء مسكونة ،قوله تعالى : «ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير» [1] فهذه الآية ناطقة بوضوح ، أن الله أسكن السموات والأرض دواب بثها فيهما ، ولقد كان مجاهد (من التابعين) جريئا حين فسرها بقوله : أسكنهما بالناس والملائكة .

---

(١) سورة الشورى : ٢٩ .

قال الألوسي – بعد موافقته على هذا الرأى : إنه عَبَّر بما تغليبا لغير ذوى العلم فى السموات والأرض ، ثم قال : ولا يبعد أن يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى ، وأحوال مختلفة لانعلمها ، ولم يذكر فى الأخبار شيء منها ، فقد قال تعالى : «ويخلق مالا تعلمون »

يعنى أن هذه الآية ، قامت مقام الأخبار فى ذكر أنه تعالى يخلق مالا علم لنا به ، ولم نعلمه مفصلا لأنه لاضرورة لنا فى علمه ، ونلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يخبر الناس بذلك فى أول عهدهم بالرسالة ، لأنها مظنة تشكك ، فإن الإنسان مجبول على إنكار مالا عهد له به ، وما لادليل عليه مما لايقع عليه الحس ، وإن كان فى حيز الإمكان العقلي ، فكيف يكون موقفهم إيجابيا من مثل هذه التفاصيل ، وهم حديثو عهد بجاهلية وعبادة أوثان وتقليد للآباء .

والذى لاريب فيه لغةً إمكان دخول ذوى العلم فى عموم قوله تعالى : «وما بث فيهما من دابة » إذ لامانع من تغليب غير ذوى العلم عليهم لكثرته ، بإطلاق (ما) التى تستعمل

لغير العاقل على الجميع ، فإن ذلك مألوف في العرف القرآني ، كما في قوله تعالى : «ولله ما في السموات وما في الأرض» الآية (٣١) من سورة النجم فإن العقلاء داخلون قطعا في عموم (ما) هنا ، وليست كلمة (دابة) قاصرة على الحيوان الأعجم ، فإنها من دبَّ يدب دبًّا ودبيباً ، أي مشى على هينة ، ولهذا أطلقت الدابة على الناس وهم سائرون إلى منى - كما في القاموس ، وقال الشاعر

زعمتني شيخا ولست بشيخ إنما الشيخ من يدب دبيبا

وكيف لايدخل الإنسان في هذا العموم والك[illegible] آيات الله تعالى ، فهل يليق أن نقصر الآية على مابث فيهما من الحيوان ، والعقلاء أولى منه في الدلالة على الله تعالى - مع مساعدة اللغة على ذلك .

ويلاحظ أن (ما ومَنْ) يتفاوضان في المعنى في كلام الله تعالى ، فقد تستعمل (مَنْ) في غير العقلاء ، كما في قوله تعالى : «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم مَنْ يمشي على بطنه ومنهم مَن يمشي على رجلين ومنهم مَنْ يمشي على أربع» [illegible] استعملت (مَنْ) فيمن يمشي على بطنه ومن يمشي على

أربع فى أفصح كلام ، وهما من غير العقلاء ، وقد تستعمل (ما) فى المولى سبحانه كما فى قوله جل وعلا : «والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها »

فلهذا يتبين أن رأى مجاهد فى شمول قوله تعالى : «ومايبث فيهما من دابة » للعقلاء ، له مايبرره فى اللغة ومساق الآية وسترى لحبر الأمة ابن عباس فيما يأتى ماهو أوسع وأوضح فى تعدد الأرضين ، ومَسْكونيتها بالإنسان .

الأرضون السبع فى القرآن والسنة

يقول الله تعالى فى سورة الطلاق « الله الذى خلق سبع سَموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » ويقول الجمهور كما نقله الألوسى — إن مثلية الأرض للسموات فى كونها سبعا ، وفى كونها طباقا بعضها فوق بعض ، وبين كل أرض وأرض ، كما بين السموات والأرض ، وفى كل أرض من خلق الله ، ما لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى .

وأخرج ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والحاكم — وصححه — والبيهقى فى شعب الإيمان وفى الأسماء والصفات ، من

طريق أبي الضحى ، عن ابن عباس أنه قال في الآية : سبع أرضين ، في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهم كإبراهم ، وعيسى كعيسى » .

قال الذهبي : إسناده صحيح ، لكنه شاذ ، وفسر شذوذه بقوله : لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعا ، أي أنه رواية واحد ، وهذا لا يمنع صحته ، ولهذا وصفه بالصحة ، ذلك من الأمور المقررة في علم أصول الحديث (المصطلح) .

قال الألوسي في تفسيره : والمراد أن في كل أرض خلقا يرجعون إلى أصل واحد ، رجوع بني آدم في أرضنا إلى آدم عليه السلام ، وفيهم أفراد ممتازون على سائرهم ، كنوح وإبراهيم وغيرهما فينا :

ومن هذا نعلم أن القرآن حقق للناس ظنونهم ، في تعدد الأرض وسكناها ، وأن حبر الأمة ابن عباس ، كان أصرح الناس في تِبْيَانِ هذا التعدد والقول بمسكونية هذه الأرضين ، ومشابهة ساكنيها لساكني أرضنا من العقلاء ، حتى في إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام إليهم ، فإن ثبت هذا التعدد والمسكونية بأدلة يقينية في المستقبل ، فلن نفاجأ به بعد أن علمناه نصا في كتاب الله ، وفَهْماً لأئمتنا .

ولقد صرحت السنة الصحيحة بسبعية الأرض ، فلقد صح من رواية الإمام البخارى وغيره بسندهم ، قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن » الحديث .

ولقد صرح الألوسى بأنه يجوز أن يكون العدد لا مفهوم له، وأنه يمكن أن تكون الأرضون أكثر من سبع ، وكذلك السموات ، والاقتصار على العدد المذكور ، لا يستدعى نفى الزائد ، فلو ثبت هذا الذى قاله الألوسى يقينا ، أمكن تأويل الدليل السمعى ، فإن من القواعد المقررة ، فى علم الأصول ، أنه متى عارض الدليل العقلى الدليل السمعى ، وجب تأويل الدليل السمعى ، لأجل الدليل العقلى .

قال الألوسى : ولا أرى بأساً فى ارتكاب تأويل بعض الظواهر المستبعدة بما لا يستبعد ، وإن لم يصل الاستبعاد إلى حدّ الامتناع ، إذا تضمن ذلك مصلحة دينية ، ولم يستلزم مصادمة معلوم من الدين بالضرورة .

أقول [illegible] ذلك قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » [illegible] ظاهر [illegible] فى أن الكواكب فى السماء الدنيا ، وهذا يمكن

تأويله بأن الآية جاءت على ما نشاهده ، فلا يضر كونها كلها أو بعضها فوقها أو تحتها — كما قال الألوسى — ولم يقم دليل على أن شيئا من الكواكب مَغْرُوزٌ فى شىء من السموات كالفص فى الخاتم ، والمسمار فى اللوح ، بل فى بعض الأخبار ما يدل على خلافه — ثم قال :

وبالجملة من صدق بسعة ملك الله تعالى وعظيم قدرته ، لا ينبغى أن يتوقف فى وجود سبع أرضين على الوجه الذى قدمناه ، وليس فى ذلك ما يصادم ضروريا من الدين ، أو يخالف قطعيا من أدلة المسلمين .

ولعل القول بذلك التعدد هو المتبادر من الآية ، وتقتضيه الأخبار ، ومع هذا فهو ليس من ضروريات الدين ، فلا يكفر منكره أو المُتَرَدِّدُ فيه ، لكن لا أرى ذلك الإنكار أو التردد إلا عن جهل بما هو الأليق بالقدرة ، والأحرى بالعظمة ، والله تعالى هو الموفق للصواب .

وقد فتح الله تعالى بأفكار جديدة تؤيد فكرة مسكونية السماء ، وتعدد الأرض ، وسر التعبير بأن هذه وتلك سبع ، وإن احتملت أكثر منها ، وسَنُضَمِّنُ تِلْكَ الأفكار بحثا مستقلا أُعِدُّ القارئ بنشره فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، إن كان فى العمر بقية ، والله تعالى هو الموفق والمعين .

الأولياء والكرامة

كان هذا المقال قد نشر في عددين من أعداد مجلة الأزهر الغراء ، فأحدث أثرا عميقا فى القراء على اختلاف مستوياتهم وتلقينا من أجله رسائل من بعض قرائنا فى العالم الإسلامى ، يبدون غبطتهم به ، ورضاهم عنه تحقيقا وتحريرا ، وإنا إذ نشكرهم جميعا على ما تفضلوا به من عبارات الثناء التى هم أحق بها وأولى ، نعيد نشر هذا المقال بشقيه فى هذا الجزء ، تعميما لنفعه ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

البيان

يختلف الناس فى فهم المراد من الأولياء ، كما يختلفون فى إثبات الكرامة لهم ، ولقد رأينا أن نثبت رأى الدين فى ذلك ، أثناء شرحنا لقوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون (٦٣) لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (٦٤) » من سورة يونس .

اعلم أيها الأخ المسلم ، أن الأولياء جمع ولى ، ومن معانيه اللغوية القريب والمحب والحبيب والناصر ، وكل تصح

إرادته فى الآية الكريمة ، فالعبد الصالح قريب من الله بروحه ونيته وإخلاصه ، محب لربه ، ومحبوب له سبحانه ، وناصر لدينه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم .

وقد وعدالله — سبحانه — أولياءه بأنهم « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى لايعتريهم يوم القيامة خوف من لحوق مكروه بهم ، ولا هم يحزنون على فوت مطلوب لهم ، فهم آمنون من خلف الله فى وعده عباده الصالحين بالمغفرة وحسن الجزاء ، فإن وعده تعالى يستحيل أن يتخلف .

ولا يمنع ذلك من أن يخافوه فى دنياهم ، فإن من خاف الله تجنب مخالفة أمره ونهيه ، وقد جاء فى الحكم : من خاف سلم .

والخوف من الله ضرب من ضروب العقل والعلم ، قال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماءُ »

والله تعالى لايجمع على عبده خوفين ولا أمنين ، فمن خاف الله فى الدنيا فأطاعه ، أمنه فى الآخرة ، ومن أمنه فى الدنيا فعصاه ، خوفّه فى الآخرة .

وليس المقصود أنه لاخوف عليهم من محن الدنيا ، ولا هم يحزنون فيها على فوت بعض المنافع أو فقدان الأحبه مثلا ،

فإن الله يمتحن عباده بالمحن فى دنياهم ويُفَوِّتهم بعض النعم ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا ،

ومن ذلك ما أصاب المسلمين فى غزوة أُحد ، من الضحايا الكثيرة ، وضياع النصر الذى أصابوه فى أول الغزوة ، وصدق الله تعالى إذ يقول : «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » ٢١٤ ــ البقرة .

صفة الأولياء من القرآن

وقد بين الله صفة أوليائه الذين يستحقون وعده الكريم بقوله : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» يعنى أن أولياء الله الذين لايخافون ولا يحزنون ، هم الذين صدقوا بالله ورسوله وبما جاء به عن ربه ، وكانوا مُسْتَمِرِّين على تقوى الله تعالى ، فإن تلبسوا بمعصية ، فلا شبهة فى زوال وصف الولاية عنهم ، لأن الاتصاف بها قائم على تقوى الله تعالى ، ولا تقوى مع وجود المعصية بالإجماع .

فإن تاب العاصى من ذنبه توبة نصوحا ، وعاد إلى تقوى الله تعالى ، قبل الله توبته ، قال تعالى : «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ــ ٢٥ » من سورة الشورى.

وأما عودة الولاية إليه بعد المعصية ، فموقوفة على سلوكه بعد التوبة ، فإن كان من الذين يترددون بين الطاعة والمعصية ، فهيهات أن تعود إليهم ، وإن استمروا على الطاعة نادمين على ماسلف من المعصية ، فمن العلماء من يرى عودة الولايه إليهم ، ورب نادم على معصيته ندما بليغا ، يكون أعظم إقبالا على الطاعة وصفاء النفس ممن داوم على الطاعة برفق ، ويكون نظير من يتصف بالأيمان أو العدالة ، بعد أن لم يكن متصفا بهما .

ومن أمثلة ذلك أن الله تعالى أوجب فى صدر الهجرة صيام رمضان ، وحرم على من نام فيه ليلا أن يأتى أهله إذا استيقظ فى ليله بعد النوم ، أو كان مستيقظا وقد نامت زوجته ، فلا يحل له أن يأتيها بعد نومه ، أو بعد نومها حتى لا يفسد صومها ، وقد وقع ، فى هذه الخطيئة أو تلك بعض الصحابة ، ثم استعظموها ، وجاءوا رسول الله نادمين ، قائلين : هلكنا يا رسول الله ، فأنزل الله تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » إلى قوله « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل[1] » الآية

(١) البقرة : ١٨٧

وقد وقع فى هذه الخطيئة بعض كبارالصحابة ، ومنهم عمر ابن الخطاب ، وهو من كبار الأولياء ذوى الكرامات ، ولعل وقوعهم فيها لقرب تكليفهم بالصوم مدة طويلة تبدأ من حين النوم بعد الإفطار ، أو بعد صلاة العشاء — بعد أن لم يكونوا كذلك — وقد بدأ التكليف بالصيام على هذا النحو الطويل امتحانا لصبر عباده ، حتى إذا أخطأوا رحمهم بمغفرته وبالتخفيف عنهم ، فيكون لذلك أثره العظيم فى نفوسهم ، وهذا لون من سياسة التشريع الإسلامى ، عظيم الأثر فى النفوس ، فإن التخفيف بعد التشديد ، يُشعر العَبْدَ بأن ربه لايتخلى عنه وقد كان الفضيل بن عياض من قطاع الطريق ، وفى إحدى جولاته الليلية سمع من يقرأ قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » فتأثر قلبه بالآية تأثرا بليغا ، وقال : آن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، وتاب عما كان فيه ، ثم أصبح من أزهد الناس وأصلحهم وأعبدهم ، ويروى عنه الكثير من الكرامات ، وهو معدود عند أهل التصوف من كبار الأولياء :

ومن العلماء من قال إن المعصيه تُنَا فِى الولاية ، وإن حدوثها يدل على أن صاحبها الذى كان يبدو بمظهر التقوى ، لم يكن تقيا عند الله تعالى فى نفس الأمر ، نظرا لما علمه سبحانه من

أنه سيعصيه ، واستشهد لذلك بما أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمايرويه عن الله عز وجل « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولايزال العبد يتقرب إلى بالنوافل ، حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » الحديث – وهذ يدل على أن الله ينتقم ممن يؤذى ولى الله ، وأن العبد لايتقرب إليه سبحانه بشىء أحب إليه من الفرائض التى أوجبها عليه ، وأنه لايزال يتقرب إليه بالنوافل فوق الفرائض متى يمنحه ولايته وحبه ، فإذا أحبه حفظ حواسه وجوارحه ، فلا يسمع ولايبصر ولايباشر بيده أو يمشى برجله ، إلا فيما يرضى الله تعالى ، وقال الخطّابى : المراد من قوله : « فإذا أحببته كنت سمعه إلخ » توفيق الله عبده فيما يباشره بهذه الأعضاء ، حتى ييسر عليه فيها سبيل مايحبه ، ويعصمه عن مواقعة مايكرهه ، من إصغاء إلى لهو بسمعه ، ونظر إلى مانهى عنه ببصره ، وبطش بما لايحل بيده ، وسعى فى باطل برجله .

وقد تكلم غير واحد فى هذا الحديث بما لايخرج عن هذا المعنى : وخلاصته أن الله يحفظ وليه الذى اتقاه من

المعصيه حتى تبقى له ولايته وَقُرْ به وحبه ، فإذا فعل المعصية مَنْ ظاهره تقوى الله وطاعته ، يُعلَمُ أنه لم يكن محروسا بعناية لله ، وأنه لم يكن وليا لله ولا محبا له ولا محبوبا منه ، لأنه لم يكن بطاعته متقربا إليه ، ولا متقيا إياه حق تقواه ، وإن ظنه الناس كذلك ، فهو حينئذ ليس من أولياء الله تعالى فى واقع الأمر .

ومن العلماء من قسم الولاية إلى صغرى وكبرى ، فالصغرى قد يقع فيها الذنب نادرا ، فيبادر صاحبه إلى الاستغفار منه فورا ، والعودة إلى صلاح الحال ، فمثل هذا يحفظه الله ويعينه — كما قال ابن حجر — أما من كثرت معاصيه أو كانت نادرة ولم يبادر بالتوبة منها ، فإن حراسة الله وحفظه ليس له منهما شىء .

أما الولاية الكبرى فلا يقع فيها الذنب أصلا ، مع إمكان الوقوع ، بخلاف الأنبياء ، فإنهم معصومون بعصمة الله ، فيستحيل وقوع المعصية منهم ، فالله ، خلقهم على سجية البُعْد عن الذنوب ، أما الأولياء فإنه لم يخلقهم على هذه السجية ، بل أكسبهم إياها بطاعته ، وحماهم منها بمزيد التقرب إليه بالنوافل ، على مامر فى حديث البخارى ، قال الألوسى :

ومن هذا التقسيم يعلم أن الكثير ممن يدعى الولاية فى زماننا أو تدّعى له : ليس له منها سوى الدعوى . لإصراره - والعياذ بالله - على كبائر تقع منه كل يوم مرارا : ا هـ .

وقد بين الله السبب فى نفى الخوف والحزن عن أوليائه بقوله : «لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» أما بشراهم فى الحياة الدنيا فهى الرؤيا الصالحة ، فإنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة - فى أكثر الروايات - أو من سبعين جزءا منها - كما جاء فى بعض الروايات -

والدليل على أن بشرى الحياة الدنيا هى الرؤيا الصالحة ، ما أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه وغيرهم، عن عبادة بن الصامت قال : (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله سبحانه : «لهم البشرى فى الحياة الدنيا» قال : هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أوترى له» .

وقيل هى ما جاء فى القرآن من المبشرات ، كقوله تعالى : «وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا» وقوله : «وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم»

وأما بشراهم فى الآخرة ، فهى بشراهم عند الموت بالغفران والرحمة ، أخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ وابن منده

من طريق أبى جعفر عن جابر قال : «أتى رجلٌ من أهل البادية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أخبرنى عن قول الله تعالى : «الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى » إلخ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما قوله تعالى : لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، فهى الرؤيا الحسنة ، تُرَى للمؤمن فيبشر بها فى دنياه . وأما قوله سبحانه : « وفى الآخرة » فهى بشارة المؤمن عند الموت : إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك »

وقال عطاء : البشرى فى الدنيا أن تأتيهم الملائكة عند الموت بالرحمة . قال تعالى : « تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة » وأما البشرى فى الآخرة فى تلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرون من بياض وجوههم وأخذهم صحفهم بأيمانهم ، وما يقرأون فيها من البشارات إلى غير ذلك .

ونحن نقول : لا مانع من أن تكون البشارات مجموع ماتقدم ، فلا تعارض بينها ، وقد ختم الله هذا الوعد الكريم بقوله : « لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » أى لا خلف فيما تكلم الله ووعد به ، وفى جملة ذلك هذا الوعد السابق للأولياء .

وقد بين الله أن ظفرهم بتحقيق البشارتين، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، ولا ظفر بمحبوب يفوقه .

من يدعون الولاية

من الناس من يدَّعون الولاية لأنفسهم ، وأن لهم أحوالا مع الله ، وكرامات مع الناس، وهؤلاء المدعون من أهل الباطل، ولا يليق بعاقل تصديقهم ، ومن يصدقهم ، فهو إما جاهل أو غافل ، أو معين لهم على أكاذيبهم متفق معهم على ترويج باطلهم ، لمصلحة مشتركة بينه وبينهم ،

وليعلم الناس أن الولى لا يعامل الخلق ، بل يعامل الحق تبارك وتعالى، فسواء عنده أعرف الناس أنه ولى أم لم يعرفوا، فهو مشغول القلب برضا الله لا برضا الناس ، معتقد أن حديثه عن نفسه للخلق، يفقده منزلته عند الحق تبارك وتعالى ، لأنه بذلك يرائى الناس ، والرياء من الكبائر ، وهى لا تليق بحال الولى .

ومن هؤلاء المدعين من يزعم أن الولى قد يرتكب المعاصى ، وأن الولاية لا تزول عنه بارتكابها، لأنهم اطلعوا فى الغيب على أنها مكتوبة عليهم ، فهم ينفذون ما كتبه الله وهم لما

يفعلون من المعاصى كارهون «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »

الله يقول : «إن أولياؤه إلا المتقون » وهم يكذبون الله فيما يقول ، فيزعمون أنهم قد يعصون ولا يتقون ، ياسبحان الله ، هل مثل ذلك العاصى الملوث يطلعه الله على غيبه ، والله تعالى يقول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول »

إن هؤلاء ابالسة ، يمارسون الرذائل بالهواية والرغبة البهيمية الملحة ، إنهم يحملون من يعتقد فيهم الولاية على عدم الاعتراض عليهم ، ليمارسوها فى قدسية وإجلال ، إنهم يزينون لمن خدع فيهم أن يُمَكِّنهم مِمّاً يريدون ، وأنه بذلك يرضى الله ولا يغضبه ، فما أشنع الفسق فى ثياب الطاعة ، وما أجهل من يخدع فى أبالسه الإنس بزعم أنهم أولياء الرحمن ، ألا فليعلم الناس أن هؤلاء أخبث أصناف العصاة ، وأن من يصدقهم فهو من الأخسرين أعمالا ، المعذبين مآلا ، أو المستحقين أن يدخلوا مصحة الأمراض العقلية ، ليشفوا من مرض التصديق للدجالين ،

كيف يكون هؤلاء أولياء الله ، وهم يفسدون فى الأرض ولا يُصْلِحون؟ هل يعقل عاقل أن يتخذ الله وليا ينتهك حرماته ، ويتعدى حدوده ؟ إننا نعيب الملك حين يتخذ له بطانة فاسدة الخلق سيئة السلوك ، فكيف يعقل أن يتخذ الله له وليا ممن يخرج على شريعته ؟ ويفعل المنكرات ويكون قدوة سيئة لغيره ، مع أنه يقول فى أوليائه : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » وقد تقدم حديث البخارى ، وهو يحصر الولى فى العبد الصالح التقى ، ومثله فى أحاديث الرسول كثير ، فليرفع الناس عن عقولهم حجاب الخداع ، وليضربوا بيد من حديد على أولئك الفاسقين المغترين الدجالين .

المجاذيب

أما أصحاب الثياب (الموقعة) والعصى الطويلة ، والعمائم الكبيرة ذات الألوان المختلفة ، والسبح ذات الحبات الكبيرة التى يلبسونها فى أعناقهم ، وتتدلى كالسلاسل على صدورهم ، والحناجر الصائحة بذكر الله ، واللحى المسترسلة فوق النحور ، فهؤلاء لهم دور خطير فى الدعاية ضد الإسلام ، وإن ادعوا الانجذاب إلى الرحمن .

إن هؤلاء يطوفون بأضرحة الأولياء فى الموالد ، ويظهرون بهذا الرياء ، ليخدعوا السذج الجهلاء ، لا يخلو أمرهم من أن يكونوا مجرمين هربوا من العدالة ، وتزيوا بهذا الزى ليفلتوا من العقوبة ، والإجرام عريق فى نفوسهم ، سيَّالٌ فى دمائهم ، أو أنهم مخادعون دجالون يسعون لجر المنـــافع ، بالظهور بمظهر أهل التقشف زورًا وبهتانا ، أو أنهم مجانين والجنون فنون ، فهؤلاء يجب على رجال الشرطة أن يقبضوا عليهم ، ويسلموهم إلى النيابة للتحقيق معهم ، فمن كان منهم هاربا من العدالة طبقت عليه العدالة ، ومن كان منهم دَجَّالًا حوكم على دجله وعوقب ، ومن كان منهم معتوها ، وضع فى مستشفيات الأمراض العقلية ، حتى يشفى من عتهه ، ولا يصح أن يترك هؤلاء يسيئون إلى الإسلام والمسلمين ، وينشرون بمظهرهم الدعاية ضد الدين ، أمام أعدائه من الكفار والملحدين ، والدين منهم براءٌ ، إن الولى هو الذى يُبْطِنُ ولا يُظْهِرُ ، ويتعامل مع الخالق ويفر من مراءاة المخلوق ، ويلزم الوقار ولا يكون صَخَّابا ماكرا .

البله

وكثيرا ما نرى بعض الناس ، فيه سذاجة وبلاهة ، يلتفون بأضرحة الأولياء ، وبخاصة فى أيام موالدهم ، فهؤلاء

لا يصح وصفهم بالولاية ، لأنهم ليس لهم صلاح يعرف ، ومن كانوا كذلك فلا يوصفون بالولاية ، ولو ظهرت على أيديهم الخوارق ، فإن الخوارق التى تظهر على أمثال هؤلاء ، يسميها علماءُ التوحيد معونة ، وسنشرح ذلك قريبا – إن شاء الله تعالى – تحت عنوان (كرامة الولى) .

النساء لابسات الثياب البيضاء

من المثل السيئة فى الموالد ، أن ترى النساء يختلطن بالرجال ، ويظهرن بثياب بيضاء واسعة ، ويدعين الصلاح والتقوى ، ويذكرن الله صائحات ، ليزعم الناس أنهن مجاذيب أو وليات ، وما هن إلا عابثات فاسقات ، أليس لهؤلاء النساء أزواج أو آباء ، أو إخوة أو أبناء ؟ فلماذا تركنهم إلى هذا العبث العابث ، والاختلاط الفاسق بالرجال الأجانب ، حول أضرحة الأولياء فى الموالد ؟ هل كان نساءُ السلف الصالح يتركن أزواجهن أو آباءهن لمثل هذه المساخر الفاضحة ؟ أين حياء المؤمنات وصلاحهن ، وقيامهن فى بيوتهن بواجبات ربهن وذويهن ، أليس هذا أبعد عن الشبهات ، وأقرب إلى التقوى ؟

لقد حدثنى بعض العلماء أنه رأى امرأة من هؤلاء تنام على ظهرها على الرصيف بجانب مقام الحسين – رضى الله عنه – فى

مولده ، ورأى رجلا يقف على رأسها ، وسمعها تطلب منه ، أن يمارس معها الرذيلة ، مشيرة إلى مكان العفة من المرأة ، فهل يليق بالإسلام يامعشر المسلمين ؟

الموالد ووجوب تطهيرها

الموالد بدعة فى الإسلام ، ولم يدعُ إليها القرآن ولا السنة ولا السلف الصالح ، وقد أصبحت مباءة للموبقات ، ومسارح للرذيلة ، فعلى كل أمة مسلمة ، إنْ لَمْ تَقْضِ عليها ، وتُبْطِلْ بدعتها ، أن تُطَهِّرها من هذه المآثم ، وتَجْعَلَها مواسم للوعظ والإرشاد ، والبرِّ بالفقراء ، وتضرب بيد من حديد على أولئك الدجالين ، الذين أساءوا إلى الإسلام والمسلمين .

تعريف الولى فى علم التوحيد

عَرَّفَ الولىَّ علماءُ التوحيد ، بأنه هو العارف بالله وصفاته ، المواظب على الطاعات ، المجتنب للمعاصى – بقدر الطاقة – المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات المباحة .

ومنهم من قال فى تعريفه : هو من تولىّ الله أَمْرَهُ ، فلم يكله إلى نفسه ولا إلى غيره ، ومنهم من قال فى تعريفه : هو من

تولى عبادة الله وطاعته ، فعبادته تجرى على التوالى ، من غير أن يتخللها عصيان .

وهــذه التعريفات متلازمة ، ولابد من تحقق مفهوماتها ومضامنيها جميعــا ، حتى يغلب على ظننا أن الذى نراه ملتزما لها . يكون وليا فى واقع الأمر وحقيقته ، ومن كان كذلك يجوز أن يكرمه الله بأمر خارق للعادة ، يجريه على يديه ، ويسمى كرامة .

كرامة الولى فى رأى العلماء

ذهب جمهور أهل السنة إلى جواز وقوع الكرامات من الأولياء ، وأنها وقعت بالفعل ، وعرّفوا الكرامة بأنها أمر خارق للعادة ، غير مقرون بدعوى النبوة ، ولا هو مقدمة لها ، يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ، ملتزم بمتابعة نَبِيٍّ كلف بشريعة ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعملَ الصالح ، عَلِمَ بها أو لم يعلم ،

وبهذا ظهر الفرق بين المعجزة والكرامة ، فإن الأمر الخارق للعادة من الرجل الصالح ، لا يعتبر معجزة ، إلا إذا اقترن بدعوى النبوة ، فإن لم يقترن بدعواها فهو الكرامة .

وإذا ظهر الأمر الخارق قبل النبوة . فهو إرهاص لها وبشارة بها ، مادام صاحبه على درجة عالية من الاستقامة ومكارم الأخلاق .

فإن ظهر الأمر الخارق على يد من لا يعرف بالصلاح والتقوى من العوام ، الذين لا هدف لهم ، فهذا الأمر يسمى معونة ، أجراه الله على يد بعض الخاملين الضعفاء من عباده ، ليوجه إليهم قلوب الخيرين الكرماء من عباده ، فيعينوهم بكرمهم على مشقة العيش .

فإن ظهر على يد من لم يتابع نبيا ، فإن جاء على حسب طلبه فهو استدراج ، وإن خالف طلبه سمى (إهانة) كما حدث لمسيلمة الكذاب ، فقد بصق فى بئر قليلة الماء ، ليحقق أمنية قومه بنى حنيفة فى زيادة مائها ، فكان أثر بصقه فيها ذهاب مائها ، على عكس ما أمل قومه .

وإن جاء بتعاويذ ورقى يستخدم بها الجن ، فهو السحر [1] ، والاشتغال به حرام ، وأبلغه بعض العلماء إلى درجة الكفر ،

---

(١) راجع ما كتبناه عن السحر ورأى العلماء فيه ، وعن سحر هاروت وماروت ، فى كتابنا (هادى الأرواح)

أخذا من ظاهر قوله تعالى : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر . . » الآية[1] واحتج جمهور أهل السنة على جواز حدوث الكرامة عقلا ، بأنها أمرٌ ممكن الوقوع ، وكل ما كان كذلك فهو صالح لتحقيقه بقدرة الله تعالى ، ودليل إمكانه أنه لايلزم من فرض وقوعه محال .

واحتجوا على وقوع الكرامات من الأولياء ، بما جاء فى القرآن الكريم ، من قصة مريم وولادتها عيسى دون أب ، وقصة أصحاب الكهف ، ولبثهم مئات السنين بلا طعام ولا شراب ، وإحضار عرش بلقيس من اليمن إلى الشام ، قبل ارتداد طرف سليمان إليه ، وما رفع من كرامات الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

ومن أهل السنة من نفاها ، كأبى إسحق الإسفرايينى ، وأبى عبد الله الحليمى ، كما نفاها جمهور المعتزلة ، وتمسكوا بأنه لو ظهرت الخوارق من الأولياء لالتبس النبى بغيره ، ولأنها لو ظهرت لَكثُرَتْ بكثرة الأولياء ، ولخرجت بذلك عن كونها أمرا خارقا للعادة ، وذلك خلاف المقصود :

---

(١) ١٠٢ من سورة البقرة .

وأجاب القائلون بها ، بأن الفرق حاصل بين المعجزة والكرامة ، باعتبار دعوى النبوة والتحدى فى المعجزة دون الكرامة ، وبأن تكرار ظهورها لاينفى كونها أمرا خارقا للعادة ، لأن غايته استمرار خرق العادة ونقضها ، فتكرار ظهورها لايقتضى تحولها إلى أمر عادى ، ولذا لايستطيعها من حرم الولاية .

واعتذر العلامة (الأمير) عمن أنكروا وقوع الكرامة ، بأنهم قصدوا إغلاق الباب فى وجوه الدجالين وسد الذرائع .

الإمام النووى يقول :

يقول الإمام النووى فى كتابه (بستان العارفين) : اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات كرامات الأولياء ، وأنها واقعة وموجودة مستمرة فى الأعصار ، ويدل عليه دلائل العقول ، وصرائح المنقول .

أما دلائل العقل فهى أمر يمكن حدوثه ، ولا يؤدى وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين ، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه ، وما كان مقدورا كان جائز الوقوع .

وأما المنقول فآيات فى القرآن وأحاديث مستفيضة ،
أما الآيات فقول الله تعالى فى قصة مريم : «وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا» قال إمام الحرمين : ولم تكن مريم نبية بإجماع العلماء ، بل كانت ولية وصديقة كما أخبر الله عنها .

وقوله تعالى : «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله» .

ومن ذلك قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال . «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» قال العلماء : ولم يكن نبيا ، ومن ذلك ما استدل به أبو القاسم القُشَيْرى من قصة ذى القرنين ، وما استدل به القشيرى وغيره من قصة الخضر مع موسى – عليه السلام – قالوا ولم يكن الخضر نبيا بل كان وليا[1] .

ومن ذلك قصة أهل الكهف وما اشتملت عليه من خوارق العادات ، قال إمام الحرمين وغيره : لم يكونوا أنبياء بالإجماع .

---

(١) قال الإمام النووى : وهذا خلاف المختار ، والذى عليه الأكثرون أنه كان نبيا ، وقيل كان نبيا رسولا ، وقيل ملكا – قال النووى – وقد أوضحت الخلاف فيه فى تهذيب الأسماء واللغات وفى شرح المهذب اهـ .

وأما الأحاديث فكثيرة ، منها ما أخرجه البخارى بسنده عن أنس « أن رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، خرجا من عند النبى صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة ، ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما ، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله » وهذان الرجلان هما عبَّادُ بنُ بشر وأُسيد بن حُضَير [1] .

ومنها حديث أصحاب الغار الثلاثة ، الذين أووا إلى الغار ، فوقعت صخرة سدت بابه عليهم ، فدعا كل واحد منهم دعوة مقترنة بذكر حسنة قدمها ، فانفرجت عنهم الصخرة ، وحديث أصحاب الغار جاء فى الصحيحين . البخارى ومسلم .

ومنها حديث أبى هريرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « لقد كان فيما قبلكم مُحدّثون ، فإن يكن فى أُمتى أحد فإنه عُمرُ » أخرجه البخارى فى صحيحه .

ومنها الحديث المشهور فى صحيح البخارى وغيره فى قصة خُبَيْب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان أسيرًا عند بعض المشركين ، واسمه الحارث ، فقالت فيه ابْنَة الحارث المذكور : « والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خُبَيْب ،

(١) انظره فى كتاب الصلاة وعلامات النبوة فى البخارى .

والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده ، وإنه لموثق فى الحديد ، وما بمكة من ثمر » وكانت تقول : « إنه لرزق الله رزقه خبيبا » والأحاديث والآثار وأقوال السلف كثيرة فى هذا الباب ، وحسبنا ما تقدم .

آراء لبعض علماء السلف

يقول بعض من يثبت الكرامة ، إن شرطها أن تجرى من غير إيثار واختيار من الولى .

ومن العلماء من يجيزون وقوعها بحسب اختيار الولىّ ، ولكنهم منعوا أن تكون وسيلة لإثبات دعوى الولاية ، فرقا بين المعجزة والكرامة ، ومنهم من قال : ما وقع معجزة لنبى ، لا يجوز وقوعه كرامة لولىّ ، فيمتنع عند هؤلاء أن ينفلق البحر ، وتنقلب العصا ثعبانا ، وإمام الحرمين لا يرى مانعا من كل ما ذكر .

ويقول الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله المعجزات دلالات الصدق ، فإن ادعى صاحبها النبوة دلت على صدقه ، وإن

---

(١) يقصد بالمعجزات خوارق العادات التى لا تأتى بتعاطى الأسباب ، بل يجريها الله من فضله على يد الصالحين من عباده .

أشار صاحبها إلى الولاية ، دلت على صدقه فى حاله ، فتسمى كرامة ولا تسمى معجزة — وإن كانت من جنس المعجزات — لأجل التفرقة بين ما للنبى وما للولى .

وكان رحمه الله يقول :من الفرق بين المعجزة والكرامة ، أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مأمورون بإظهار المعجزة ، والأولياء فيجب عليهم سترها وإخفاؤها ، والنبى يدعى النبوة ويقطع القول بها ، ويؤيدها بالمعجزة ، والولى لايدعى الولاية ولايقطع بكرامة ، لجواز أن يكون ذلك مكرا .

وقال القاضى أبو بكر الباقلانى — رضى الله عنه — المعجزات تختص بالأنبياء ، والكرامات تظهر للأولياء ، ولاتكون للأولياء معجزة ، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها ، والمعجزة لم تكن معجزة لعينها ، وإنما كانت معجزة لحصولها على شروط كثيرة ، فمتى اختل شرط منها لا تكون معجزة ، وأحد هذه الشروط دعوى النبوة ، والولى لا يدعى النبوة فالذى يظهر على يده لايكون معجزة ،

قال القشيرى : وهذا الذى قاله هو الذى نعتمده ، وندين به ، فشرائط المعجزة كلها أو أكثرها توجد فى الكرامة ، إلا هذا

الشرط الواحد ، فالكرامة فعل لا محالة ، وهو ناقض للعادة ، وتحصل فى زمن التكليف على يد عبد تخصيصا له ، وتفضيلا ، وقد تحصل اختيارية ودُعائية ، وقد لاتحصل وقد تكون بغير اختيار فى غالب الأَوقات ، ولم يؤمر الولى بدعاء الخلق إلى نفسه ، ولو ظهر شيء من ذلك عمن يكون أهلًا له لجاز .

ونخرج من هذا الإمام أبا بكر بن فورك يسمى مايظهر من الخوارق على يد النبي أَو الولى معجزة ، لكونها تعجز غير النبي والولى عن الإتيان بمثلها ، ويقول : إن تلك الخوارق أمارات صدق النبي فى دعوى النبوة ، وصدق الولىّ فيما أشار إليه من الولاية .

أما الإمام الباقلانى والقشيرى ، فيخصان اسم المعجزة بما ظهر على يد مدعى النبوة من الخوارق ، أما مايظهر على يد الولى منها فكرامة ، وهذا هو مايقوله الجمهور .

وفى رأيى أنه لا خلاف بين ابن فورك وغيره من حيث المعنى المقصود ، فإنه حين سماها مع الولى معجزة الإظهار ولايته ، فإنه يقصد المعنى اللغوى للإعجاز ، لا المعنى الإصطلاحى الخاص

بالنبوة ، ومن يراجع آخر كلام ابن فورك يجد أنه غير مختلف مع القوم فى المعنى الإصطلاحى لكل من المعجزة والكرامة .

هل يعلم الولى أنه ولى

اختلف أهل الحق : هل يجوز أن يعلم الولى أنه ولى أم لا ؟ فالإمام أبو بكر بن فورك يقول : لا يجوز : لأنه يسلبه الخوف ويوجب له الأمن ، وكان الأستاذ أبو على الدقاق يقول بجوازه ، وليس ذلك واجباً فى جميع الأولياء ، فمنهم من يعلم أنه ولى ، فتكون معرفته هذه كرامة له انفرد بها ، وليست كل كرامة لولى ، يجب أن تكون تلك بعينها لغيره ، بل لا يلزم ظهور كرامة للولى حتى تعرف ولايته ، فحسبه فى ولايته عند الله أن يكون مؤمناً تقيا ، بخلاف النبى ، فإنه يجب أن تكون له معجزات حتى يعلم الناس صدقه فيؤمنوا به ، وحالُ الولى بعكس ذلك ، لأنه ليس بواجب على الخلق ولا على الولى العلم بأنه ولىّ ، فهؤلاء العشرة المبشرون بالجنة من الصحابة ، لم تظهر على أيديهم كرامة يعرفون بها ولايتهمْ ، ومع ذلك فهم من خيرة الأولياء ، ولذا بشرهم الرسول بالجنة

أنواع الكرامة

قد تكون الكرامة إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام أو شراب من غير سبب ظاهر ، أو تسهيل قطع مسافة طويلة فى مدة قريبة ، أو تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال المناقضة للعادة ، هكذا قال الإمام القشيرى ، ثم قال : إن كثيرا من المقدورات يعلم اليوم قطعا أنها لايجوز أن تقع اليوم كرامة للأولياء ، وبالضرورة أو شبه الضرورة يعلم ذلك ، فمنها حصول إنسان من غير أبوين ، وقلب جماد بهيمة ، وأمثال ذلك كثير .

ومع أن الإمام أبا إسحاق الإسفرايينى من كبار أهل السنة فإنه كان يقول : المعجزات دليل صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبى ، وكان يقول : الأولياء لهم كرامات ليست من جنس المعجزات ، أى ليست من خوارق العادات ، وذكر منها إجابة الدعاء .

أمثلة واقعية للكرامة

فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة للكرامات ، وقد مرَّ بك أن فيها محدثين ، وهم الذين يحدثهم الله بالغيوب

إلهاما ، وقيل : أو بواسطة الملك ، وأن من هؤلاء المحدثين عمر بن الخطاب ، وقصته مع القائد (سارية) معروفة ، فقد كان عمر يخطب بالمدينة على المنبر ، وكان سارية هذا قائدًا لفرقة من المسلمين ، تقاتل أعداء الإسلام فى أرض بعيدة ، وكان وشيك الوقوع فى كارثة لا ينقذه منها إلا أن يلوز بالجبل ، فكشف الله الأستار المادية ، ومَكَّنَ عُمَرَ من مشاهدة سارية وجيشه وماهم فيه من حرج ، فنادى قائلا : يا سارية الجبلَ الجبلَ – مرتين – ثم واصل خطبته ، فلما عاد سارية مظفرا منصورا ، حدَّث المسلمين ، بما كان فيه من حرج وأنه سمع عمر بن الخطاب ، يناديه ويطلب منه اللياذ بالجبل ، فعرف صوته ولبَّى نداءه ، وأحرز النصر بسبب ذلك ، وهنا أدرَك من سمع الخطبة سرَّ نداءِ عمر وهو على المنبر قائلا : يا سارية الجبل الجبل ،

كما عرفت من الحديث السابق ، أن بعض الصحابة كان ينبعث النور أمامهما من مصابيح لايعرفون من أين أتت ، وأن خبيبا وهو أسير مقيد بمكة كان يأتيه العنب من ظهر الغيب – وقد شهدت بذلك ابنة آمره – فقد كان يأكله من قطف بيده ، وما بمكة – شيء من ذلك .

أبو مسلم الخولانى

أبو مسلم كنيته ، واسمه عبد الله بن ثوب أو ابن ثواب ، وهو تابعى من اليمن من قبيلة خولان ، وكان قد آمن بالنبى — صلى الله عليه وسلم — لما بلغته دعوته وهو باليمن ، ولما ادعى الأسود بن قيس العنسى النبوة باليمن ، قال لأبى مسلم الخولانى : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال لا أسمع ، قال : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم ، فردَّ ذلك عليه مرارا ، وهو — يجيب بنفس الطريقة ، فأمر الفاجر بنارٍ عظيمة ، فألقى فيها أبو مسلم فلم تحرقه ولم تضره ، فقيل للأسود انْفِهِ عنك ، وإلا أفسد عليك من تبعك فأمره بالرحيل ، فأتى أبو مسلم المدينة — وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستُخلِفَ أبو بكر رضى الله عنه — فأناخ أبو مسلم راحلة بباب المسجد ، فقام يصلى إلى سارية ، فبصُر به عُمَرُ فقام إليه فقال : مِمَّن الرجل ؟ فقال : من أهل اليمن ، قال : فلعلك الذى حرقه الكذاب بالنار ؟ قال : ذلك عبد الله بن ثوب ، قال : أنشدك الله : أنت هو ؟ قال : اللهم نعم ، فاعتنقه ثم بكى ، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبى بكر ، فقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فُعِلَ به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن .

وروى الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب الزهد : (أن أبا مسلم الخولانى مَر بدجلة وهى تَرْمِى الخشبَ مِنْ بَرِّهَا فمشى على الماء ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل تفقدون من متاعكم شيئا فندعو الله عز وجل) ورواه من طريق آخر ، وفيه (أنه وقف على دجلة ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر آلاءه ونعمه ، وذكَرَ سَيْرَ بَنِى إسرائيل فى البحر ، ثم نهر دابته فانطلقت تخوض فى دجلة ، وتبعه الناس حَتى قطعها الناسُ) :

وله كرامات عديدة غير هذه ، ذكر الإمام النووى فى كتابه (بستان العارفين) وحسبنا من نماذج الكرامات ، ما ذكرنا .

رأى الامام محمد عبده

عقد الإمام محمد عبده فصلا فى آخر كتابه (رسالة التوحيد) تكلم فيه على كرامات الأولياء ، وذكر آراء العلماء فى هذه المسألة ، مابين مثبت ومنكر ، وناقش أدلة كل فريق ثم قال :

وأما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى ، مِمَّا تتناوله القدرة الإلهية ، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقلاء ، وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لايجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة ، على يد ولىٍّ لله معين ، بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأُمة ، أن ينكر صدور أى كرامة كانت ، من أى ولى كان ، ولايكون بإنكار هذا مخالفاً لشىء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنة صحيحة ، ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صَحَّ فى السنة عن الصحابة : اهـ .

ومن هذا الكلام نفهم أن الإمام محمدا عبده ، يرى أن الكرامة جائزة عقلًا للولى ، ولكنها ليست واجبة الحدوث لكل ولى ، وأن التصديق بأن الولى الفلانى صاحب كرامات معينة ، ليس أصلا من أصول الدين ، فمن لم يصدقها فإن ذلك لايخدش إيمانه ، وأما الذى يجب التصديق به من الكرامات ، فهو ما ورد فى السنة الصحيحة عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكلامه هذا لايمنع من عَرَف الكرامة فى ولىٍّ أن يصدق بها وبولايته ، لأنهامن الأمور الجائزة عقلا وشرعا على الله تعالى ، فهى داخلة فى عموم قوله سبحانه «والله على كل شئ قدير ».

والذى حمل الإمام محمدا عبده على أن يقول ما قال ، هو الاحتياط فى أمر الدين ، ولذا عقب الكلام الذى رويناه عنه بقوله : أين هذا الأصل المجمع عليه ، مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام ، حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروريات الصناعات ، يتنافس فيها الأولياء ، وتتفاخر فيها همم الأصفياء ، وهو مما يتبرأ الله ودينه وأولياؤه ، وأهل العلم أجمعون : ا هـ

فاحرص على هذا الكلام النفيس واستفد به ، ولا تَصِفْ أحدًا بالولاية ، إلا إذا ثبت أنه كما قال تعالى : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » ولا تصف أمرا خارقا بأنه كرامة ، إلا إذا صدر من مؤمن تقى ، فالخوارق قد يأتى بها السحرة والمستدرجون وغيرهم ، ولا تقتصر على المتقين ، كما سبق بيانه تحت عنوان (كرامة الولى فى رأى العلماء) .

وإلى هنا ينتهى الجزء الأول من كتابنا (أقباس من نور الحق) وسيتلوه الجزء الثانى — إن شاء الله تعالى — وأسأل الله تعالى التوفيق والمعونة .

مصطفى محمد الحديدى الطير

الفهـــرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

وكيل اول

رئيس مجلس الادارة

على سلطان على

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤٢٣٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

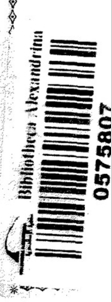
١٠٠٠٢-١٩٧٦-٨٠٣٦

ترقبوا العدد القادم :

الإســلام والتعصب

ترجمة :

الأستاذ سعد زغلول أبو سنة



الثمن ٦٣٠ مليما